الفصل الثالث

القصص الشعبية

١- راكب الأسد

حدّثنى أبو جعفر أصبغ بن أحمد، وكان يحجُبُ أبا محمد المُهَلّبى رحمه الله، قبل وزارته، فلما وَلِىَ الوَزارة كان يصرّفه فى الاستِحثَاث على العمال[1]، وفى الأعمال التى يتصرّف فيها العمّال الصغار، قال:

كنت بشيراز مع أبى الحسن على بن خلف بن طناب، وهو يتولّى عمالتها يومئذ.

فجاء مُستحِثٌّ من الوزير، يطالبه بحمل الأموال، وكان أحدَ العمّال الأكابر، وقد كُوتِب بإكرامه.

فأحضره أوّل يوم طعامه وشرابه، فامتنع من مؤاكلته، وذكر أنّ له عذرًا.

فقال: لابدّ أن تأكل.

فأكل بأطراف أصابعه، ولم يُخرج من كُمّه.

فلمّا كان فى غد، قال علىّ بن خلف لحاشيته: لِيدْعُه كلّ يوم واحدٌ منكم فكانوا يدعونه، ويدعون بعضهم بعضًا، فكانت صورته فى الأكل واحدة.

فقالوا: لعلّ به بَرَصًا أو جُذامًا.

إلى أن بلغت النوبة إلىّ، فدعوتُه، ودعوتُ الحاشية، وجلسنا نأكل، وهو يأكل معنا على هذه الصورة، فسألته إخراج يده والانبساطَ فى الأكل، فامتنع عن إخراج يده.

فقلت له: يلحقك تنغيصٌ بالأكل هكذا، فأحرِجْها على أىّ شىء كان بها، فإنا نرضى به.

---

(١) الاستحثاث هو ما نطلق عليه الآن: متابعة الخطة أو مراقبة الموظفين.

قال: فكشفها، فإذا فيها وفى ذراعه أكثرُ من خمسين ضربة، بعضها مُندمل، وبعضها فيه بقيّة وعليها أدوية، وهى على أقبح منظر.

فأكل معنا غير مُحْتَشم[1]، وقُدّم الشراب فشربنا، فلما أخذ منه الشراب، سألناه عن سبب تلك الضربَات.

فقال: هو أمر ظريف أخاف أن لا أصدَّق فيه.

فقلت: لا بدّ أن تتفضّل بذلك.

فقال: كنت عام أوّل قائمًا بحضرة الوزير، فسلّم إلىّ كتابًا إلى عامل دمشق، ومنشورًا، وأمرنى بالشخوص إليه، وإرهاقه بالمطالبة بحمل الأموال، ورسم لى أن أخرج على طريق السَّماوة لأتعجّل، وكتب إلى عامل هَيْت[2] بإنفاذى مع خِفارة.

فلما حَصَلْتُ بـ«هيْت»، استدعى العاملُ جماعة من عدّة من أحياء العرب، وسلّمنى إليهم، وأعطاهم مالاً على ذلك، وأشهد عليهم بتسلّمى، واحتاط فى أمرى.

وكانت هناك قافلة تريد الخروج منذ مدّة، وتتوقّى البَرِّيَّةَ، فأنسوا بى، وسألونى أن آخذ منهم لنفسى مالاً، وللخفراء الأعراب مالاً، وأخلَهم فى الخِفارة، ويسيرون معى، ففعلتُ ذلك، فصرنا قافلة عظيمة.

وكان معى من غِلمانى ممَّن يحمل السلاح نحو عشرين غلامًا، وفى حمّالى القافلة والتجارة جماعةٌ يحملون السلاح أيضًا.

فرحلنا عن هَيْت، وسرنا فى البريّة ثلاثة أيّام بلياليها، فبينَا نحن نسير إذ لاحتْ لنا خيل.

فقلت للأعراب: ما هذه الخيل؟ فمضى منهم قوم إليهم ثم عادوا كالمنهزمين.

---

(١) دون شعور بالحرج.

(٢) السماوة: بادية الشام، وهَيْت: إحدى القرى فى الطريق إليها.

فقالوا: هؤلاء قوم من بنى فلان بيننا وبينهم شرٌّ وقتال، ونحن طِلْبَتُهُم[1]، ولا ثبات لنا معهم، ولا يمكننا خِفارتكم معهم، وركضوا منصرفين، وبقينا متحيّرين، فلم أشكّ أنّهم كانوا من أهلهم، وأنهم فعلوا ذلك بِمُوَاطأةٍ علينا.

فجمعتُ القافلة، وشجّعتُ أهلها وغلمانى، وضممتُ بعضها إلى بعض، وأمرتهم بحمل السلاح، ولَأمَةِ[2] الحرب، فصرنا حول القافلة من خارجها متساندين إليها كالدائرة.

وقلت لمن معى: لو كان هؤلاء يأخذون أموالنا ويَدَعُون جمالَنا لننجوَ عليها كان هذا أسهل، ولكنّ الجمال والدواب أوّلُ ما تؤخذ، ونتلف نحن فى البريّة ضيعة وعطشًا، فاعملوا على أن نقاتل، فإن هزمناهم سِلمنا، وإن قُتلنا كان أسهل من الموت بالعطش.

فقالوا: نفعل.

وغَشِينَا القومُ، فقاتلناهم من انتصاف النهار إلى أن حجز الليل بيننا، ولم يقدروا علينا، وقتلْنا عدّة خيل، وجرحنا منهم جماعة، وما ظَفروا منّا بِعَوْرة، وباتوا بالقرب منّا حَنِقين علينا.

وتفرّق الناس للأكل والصلاة، واجتهدتُ بهم أن يجتمعوا، ويبيتوا تحت السلاح، فخالفونى، وكانوا قد كلّوا وتعِبُوا، ونام أكثرهم.

فغشيتنا الخيلُ، فلم يكن عندنا امتناع، فوضعوا فينا السيوف، وكنت أنا المطلوبَ خاصّة، لما شاهدوه من تدبيرى القوم برأيى، وعلموا أنّى رئيسُ القافلة، فقطّعونى بالسيف، ولحقتنى هذه الجراحاتُ كلُّها وفى بدنى أضعافها.

قال: وقد كشف لنا عن أكثر جسده، فإذا به أمرٌ عظيم هالنا، ولم نره فى بَشر قط.

---

(١) طلبتهم: الهدف الذى يبحثون عنه.

(٢) لأمة الحرب: رداء الحرب من ثياب وسلاح.

قال: وكان فى أجلى تأخيرٌ، فرميتُ نفسى بين القتلى، لا أشكّ فى تلفى، وساقوا الجمال والأمتعة والأسارى.

فلما كان بعد ساعة ، أفقتُ، فوجدتُ فى نفسى قوّة، والعطش قد اشتد بى، فلن أزل أتحامل، حتى قمتُ أطلب فى القافلة سطيحة[1] قد أفلتت، أشرب منها، فلم أجد شيئًا.

ورأيتُ القتلى والمجروحين الذين هم فى آخر رمق، وسمعتُ من أنينهم ما أضعف نفسى، وأيقنتُ بالتلف.

وقلت: غاية ما أعيش إلى أن تطلعَ الشمس.

فتحاملت أطلب شجرة أو محملاً قد أفلت، لأجعله ظِلاًّ لى من الشمس إذا طلعت.

فإذا أنا قد عثرتُ بشىء لا أدرى ما هو، فى الظلمة، فإذا أنا مُنبطِح عليه بطولى وطوله.

فثار من تحتى، وعانقته، وقدّرته رجلاً من الأعراب، فإذا هو أسدٌ!!

فحين علمتُ ذلك طار عقلى، وقلت: إن استرخيْت افترسنى، فعانقتُ رقبته بيدى، ونمتُ على ظهره، وألصقتُ بطنى بظهره، وجعلت رجلىَّ تحت مَخْصَاه.

وكانت دمائى تجرى، فحين داخلنى ذلك الفزع العظيم رقأ[2] الدم، وعَلِقَ شعر الأسد بأفواه أكثر الجراحات، فصار سِدادًا لها، وعونًا على انقطاع الدم، لأنّى حَصَلتُ كالملتصق عليه.

وورد على الأسد منّى، أطرف ممَّا ورد علىَّ منه وأعظم، وأقبل يجرى تحتى كما تجرى الفرس تحت الراكب القوىّ، وأنا أحسُّ بروحى تخرج، وأعضائى تتقصّف من شدّة جريه، ولم أشكّ أنّه يقصِد أجَمَةً بالقرب، فيلقينى إلى لَبْوتِهِ فتفترسنى.

---

(١) السطيحة: وعاء الماء أو القربة.

(٢) رقأ: تجمد وتوقف.

فجعلت أضبِط نفسى مع ذلك، وأؤمّل الفرج، وأدافع الموت عاجلاً، وكلّما همّ أن يربض ركضتُ خِصاه برجلى فيطير، وأنا أعجب من نفسى ومطيّتى، وأدعو الله عَزَّ وجَلَّ، وأرجو الحياة مرّة، ومرّة آيس من نفسى.

إلى أن ضربنى نسيمُ السَّحَر، فقويت نفسى، وأقبل الفجر يضىء، فتذكّرت طلوع الشمس فجزِعت، ودعوت الله تعالى، وتضرعتُ إليه.

فما كان بأسرعَ من أن سمعت صوتًا ضعيفًا لا أدرى ما هو ، ثم قوى، فشبّهته بصوت ناعورة، والأسد يجرى، وقوى الصوت، فلم أشكّ فى أنّه ناعورة.

ثم صعِد الأسد إلى تلّ، فرأيتُ منه بياض ماء الفرات وهو جار، وناعورة تدور، والأسد يمشى على شاطئ الفرات برفق، إلى أن وجد مُشْرعة[1]، فنزل منها إلى الماء، وأقبل يسبح ليبعد.

فقلتُ لنفسى: ما قعودى، لئن لم أتخلّص هنا، لا تخلّصتُ أبدًا.

فما زلت أرُفقُ به، حتى تخلّصت، وسقطتُ عنه، وسبحتُ منحدرًا، وأقبل هو يشقَ الماء عرْضًا.

فما سبحتُ إلا قليلاً، حتى وقعت عينى على جزيرة، فقصدتها، وحصلت فيها ، وقد بطلَتْ قوّتى، وذهب عقلى، فطرحتُ نفسى عليها كالتالف.

فلم أُحِسّ إلاّ بحر الشمس قد أنبهنى، فرجعتُ أطلب شجرة رأيتها فى الجزيرة، لأستظل بها من الشمس، فرأيتُ الأسد مُقعِيًا على شاطئ الفرات حيال الجزيرة، فقلّ فزعى منه.

وأقمتُ مستظلاً بالشجرة، أشربُ من ذلك الماء، إلى العصر، فإذا أنا بزورق منحدر، فصحتُ بهم، فوقفوا فى وسط الماء.

فقلت: يا قوم، احملونى معكم، وارحمونى.

فقالوا: أنت دسيس اللصوص.

---

(١) المشرعة: الموردة.

فأريتهم جراحاتى، وحلفتُ لهم أنّه ما فى الجزيرة بعلمى أحد سواى، وأومأت لهم إلى الأسد، وقلت لهم: قصّتى طريفة، وإن تجاوزتمونى كنتم أنتم قد قتلتمونى، فالله، الله، فى أمرى، فوقفوا، فأتوا فحملونى.

فلمّا حَصَلت فى الزورق، ذهب عقلى، فما أفقتُ إلا فى اليوم الثانى، فإذا علىّ ثياب نظاف، وقد غُسِلت جراحاتى، وجُعِل فيها الزيت والأدوية، وأنا بصورة الأحياء.

فسألنى أهل الزورق عن حالى، فحدّثتهم.

وبلغنا إلى هَيْت، فأنفذتُ إلى العامل مَن عرّفه خبرى، فجاءنى مَن حملنى إليه.

وقال: ما ظننت أنّك أفْلَتَّ، فالحمد لله على السلامة.

وقال لى: كيف هذا الذى جرى لك؟

فحدّثته الحديث من أوّله إلى آخره، فتعجّب عجبًا شديدًا، وقال: بين الموضع الذى قُطِعَ عليكم فيه الطريق، وبين الموضع الذى حملك أهل الزورق منه مسافة أربعين فرسخًا على غير مَحَجّة.

فأقمتُ عنده أيّامًا، ثم أعطانى نفقة، وثيابًا، وزورقًا، فجئت إلى بغداد، فمكثتُ أعالج جراحاتى عشرة أشهر حتى صرتُ هكذا.

ثم خرجت وقد افتقرتُ، وأنفقتُ جميع ما كان فى بيتى، فلمّا قمتُ بين يدى الوزير، رقّ لى، وأطلق مالاً، وأخرجنى إليكم.

●●●

٢- الجميلة المتوحشة

حدّثنى أبو المغيرة محمّد بن يعقوب بن يوسف، الشاعر البصرى، قال: حدّثنى أبو موسى عيسى بن عبد الله البغدادى، قال: حدّثنى صديق لى قال:

كنتُ قاصدًا الرملة[١] وحدى، وما كنتُ دخلتها قط.

فانتهيتُ إليها وقد نام الناس، ودخل الليل، فعَدَلْتُ إلى الجبّانة، ودخلتُ بعض القِباب التى على القبور، فطرحتُ دَرَقَةَ[٢] كانت معى، واتّكأتُ عليها، وعانقتُ سيفى، واضطجعتُ أريد النوم، لأدخلَ البلد نهارًا.

قال: فاستَوْحَشْتُ من الموضع، وأرِقتُ، فلمّا طال أرقى، أحسستُ بحركة.

فقلت: لصوص يجتازون، ومتى تصدّيتُ لهم، لم آمنهم، ولعلّهم أن يكونوا جماعة، فانخزلتُ بمكانى ولم أتحرّك.

وأخرجتُ رأسى من بعض أبواب القبّة، على تخوّف شديد منّى، فرأيتُ دابّة كالذئب تمشى، فإذا به قصد قبّة بحيالى، وما زال يتلفت طويلاً، ويدور حواليها، ثم دخلها.

فارتبتُ به، وأنكرتُ أمره وتطلّعَتْ نفسى إلى علم ما هو فيه.

فدخل القبّة، وخرج غير مطيل، ثم جعل يتبصّر، ثم دخل وخرج بسرعة، ثم دخل وعينى إليه، فضرب بيده إلى قبر فى القبّة يبعثره.

فقلت: نبّاشٌ لا شكَّ فيه، وتأمّلته يحفر بيده، فعلمتُ أنّ فيها آلة حديد يحفر بها.

فتركته إلى أن اطمأنّ وأطال، وحفر شيئًا كثيرًا، ثم أخذتُ سيفى ودرقتى، ومشيْتُ على أطراف أناملى، حتى دخلتُ القبّة، فأحسّ بى، فقام إلىّ بقامة إنسان، وأومأ إلىّ ليلطِمنَى بكفّه، فضربتُ يده بالسيف، فأبنْتُها[٣] وطارت.

---

(١) الرملة: من مدن فلسطين.

(٢) الدرقة: الدرع المصنوع من الجلد.

(٣) أبنتها: قطعتها.

فقال: أوّه، قتلتنى لعنك الله.

وعدا من بين يدىّ، وعدوْتُ خلفه، وكانت ليلة مقمرة، حتى دخل البلد. وأنا وراءه ولستُ ألحقه، إلاّ أنّه بحيث يقع بصرى عليه.

إلى أن اجتاز بى طرقًا كثيرة، وأنا فى خلال ذلك أعلّم الطريق لئلا أضلّ، حتى جاء إلى باب، فدفعه ودخل وأغلقه، وأنا أسمع.

فعلّمتُ الباب، ورجعتُ أقفو الأثر والعلاماتِ التى علّمتها فى طريقى، حتى انتهيتُ إلى القبّة التى كان فيها النبّاش.

وطلبت الكفّ فوجدتها، فأخرجتها إلى القمر، فبعد جَهد، انتزعتُ الكفّ المقطوعة من الآلة الحديد، وإذا هى كفّ كالكفّ، وقد أدخل أصابعه فى الأصابع، وإذا هى كفّ فيها نقش حنّاء، وخاتمان من الذهب، فعلمتُ أنّها امرأة.

فحين علمتُ أنّها امرأة، اغتممتُ، وتأملتُ الكفّ، فإذا هى أحسن كفٍّ فى الدنيا، نعومة، ورطوبة، وسِمَنًا، وملاحة.

فمسحتُ الدم عنها، ونمتُ فى القبّة التى كنتُ فيها، ودخلتُ البلد من الغد، أطلب العلاماتِ التى علّمتها، حتى انتهيتُ إلى الباب.

فسألت: لمن الدار؟

فقالوا: لقاضى البلد.

واجتمع عليها خلق كثير، وخرج منها شيخ بهىّ، فصلّى الغداةَ بالناس، وجلس فى المحراب، فازداد عجبى من الأمر.

فقلتُ لبعض الحاضرين: بمن يُعرف هذا القاضى؟

فقال: بفلان.

وأطلت الجلوس والحديث فى معناه، حتى عرفتُ أن له ابنةً عاتِقًا[1]، وزوجة، فلم أشك فى أنّ النبّاشة ابنته.

---

(١) الفتاة العاتق: التى بلغت سنّ الزواج.

فتقدّمتُ إليه، وقلت: بيني وبين القاضي أعزّه الله حديثٌ لا يصلح إلاّ على خَلْوة.

فقام إلى داخل المسجد، وخلا بي، وقال: قُلْ.

فأخرجتُ الكفّ وقلتُ: أتعرف هذه؟

فتأمّلها طويلاً، وقال: أمّا الكفّ فلا، وأما الخاتمان، فمن خواتيم ابنةٍ لي عاتق، فما الخبر؟

فقصصتُ عليه القصّة بأسرها، فقال: قُمّ معي.

فأدخلني إلى داره، وأغلق الباب، واستدعى طبقًا وطعامًا ، فأحضِر واستدعى امرأته، فقال لها الخادم: اخرجي.

فقالت: قُلْ له كيف أخرج ومعك رجل غريب، فخرج الخادم، وأعلمه بما قالت.

فقال: لابدّ من خروجها تأكل معنا، فهنا مَن لا أحتشِمُهُ.

فتأبّت عليه، فحلف بالطلاق لتخرجنّ له فخرجتْ باكية، وجلست معنا.

فقلت لها: أخرجي ابنتَك.

فقالت: يا هذا، أو قد جُننتَ؟ ما الذي حلّ بك، قد فضحتني وأنا امرأة كبيرة، فكيف تهتك صبية عاتقًا؟ فحلف بالطلاق لتخرجنها فخرجت.

فقال: كلي معنا، فرأيتُ صبية كالدينار، ما نظرتْ مقلتاي أحسنَ منها، إلاّ أنّ لونها قد اصفرّ جداً، وهي مريضة.

فعلمتُ أنّ ذلك لنزف الدم من يدها، فأقبلت تأكل بشمالها، ويمينُها مخبوءة.

فقال لها أبوها: أخرجي يَدك اليمنى.

فقالت أمّها: قد خرج بها خُرَّاج، وهي مشدودة، فحلف لتَخرُجنّها.

فقالت له امرأته: يا رجل استر على نفسك، وابنتكَ، فوالله، وحلفت له بأيْمان كثيرة، ما اطّلعت لهذه الصبيّة على سوء قط إلاّ البارحة، فإنّها جاءتني بعد نصف الليل. فأيقظتني، وقالت: يا أمي، الحقيني، وإلا تلفتُ.

فقلت: مالَك؟

فقالت: إنّه قد قُطِعَتْ يدى، وهو ذا أنزف الدم، والساعة أموت، فعالجينى، وأخرجت يدها مقطوعة، فلطمتُ.

فقالت: يا أماه لا تفضحينى ونفسَك بالصياح عند أبى والجيران، وعالجينى.

فقلت: لا أدرى بِمَ أعالجك.

فقالت: إغلى زيتًا، وأكوى به يدى.

ففعلتُ ذلك، وكويتها، وشددتها، وقلت لها: الآن خبّرينى ما دهاكِ، فامتنعت.

فقلت: والله، إن لم تحدثينى، لأكشفنّ أمرك لأبيك.

فقالت: إنّه وقع فى نفسى، منذ سنين، أن أنبش القبور، فتقدّمتُ إلى هذه الجارية، فاشترت لى جلد ماعز بشعره واستعملت لى كفّاً من حديد.

فكنت إذا أعْتَمَ الليل، أفتح الباب، وآمرُها أن تنام فى الدهليز، ولا تغلق الباب، وألبس الجلد، والكفّ الحديد، وأمشى على أربع، فلا يشكّ الذى يرانى من فوق سطح أو غيره أنّنى كلب.

ثم أخرج إلى المقبرة، وقد عرفتُ من النهار، خبر مَن يموت من رؤساء البلد، وأين دُفِن، فأقصد قبره، فأنبشه، وآخذ الأكفان، وأدخلها معى فى الجلد، وأمشى مشيتى، وأعود والباب غير منغلق، فأدخل وأغلقه، وأنزع تلك الآلة، فأدفعها إلى الجارية، مع ما قد أخذت من الأكفان فتخبئه فى بيت لا تعلمون به.

وقد اجتمع عندى نحو ثلثمائة كفن، أو ما يقارب هذا المقدار، لا أدرى ما أصنعُ بها، إلاّ أنّى كنت أجد لهذا الخروج، والفعل، لذّة لا سبب لها أكثر من إصابتى بهذه المحنة.

فلمّا كانت الليلة، سُلّط علىّ رجل أحسّ بى، كأنّه كان حارسًا لذلك القبر، فقمتُ لأضربُ وجهه بالكفّ الحديد، ليشتغل عنّى، وأعدو، فداخلنى بالسيف، ليضربنى، فتوقّيتُ الضربة بيمينى، فأبان كفّى.

فقلت لها: أظهرى أن قد خـرج فى كفّك خُرّاجٌ، وتعالَلِى، فإنّ الذى بك من الصفار، يصدّق قولك.

فإذا مضت أيّام، قلتُ لأبيكِ: إذا لم تُقطع يدُك، خَبُثَ جميع جسدك، وتلفتِ، فيأذن فى قطعها، فنظهر أنّا قطعناها، ويشيع الخبر -حينئذ- بهذا، ويستتر أمرك.

فعملنا على هذا، بعد أن استتبْتُها[1]، فتابت، وحَلَفَتْ بالله العظيم، لا عادت تفعل شيئًا من ذلك.

وكنتُ قد خطر لى أن أبيع هذه الجـارية، إلى سَفَّار يُغـرّبُها عن هذه البلد التى نحن فيها، وأراعى مَبيت الصبيّة، وأبيتُهُا إلى جانبى، ففضحتنَا ونفسَك.

فقال القاضى للصبيّة: ما تقولين؟

فقالت صدقت أمّى، ووالله، لا عدتُ أبدًا، وأنا تائبةٌ إلى الله تعالى.

فقال لها أبوها: هذا صاحبك الذى قطع يدك، فكادت تتلف جزعًا.

ثم قال لى: يا فتى من أين أنت؟

قلت: من العراق.

قال: ففيمَ وردْتَ؟

قلت: أطلب الرزق.

قال: قد جاءك حلالاً طيبًا، نحن قـوم مياسـير[2]، ولله علينا نعمة وستر، فلا تُنقص النعـمة، ولا تهتك السِّتـر، أنا أزوّجكَ بابنتى هذه، وأغنيكَ بمالى عن الناس، وتكون معنا فى دارنا.

فقلت: نعم.

فرفع الطعـام، ثم خرج إلى المسجد، والناس مـجتمعـون ينتظرونه، فخطب، وزوّجنى، وقام فرجع، وأقعدنى فى الدار.

---

(١) طلبت منها أن تتوب.

(٢) مياسير: ميسورون أغنياء.

ووقعت الصبيّة فى نفسى، حتى كدتُ أموت عشقًا لها، فافترعتها[1] وأقامت معى شهورًا، وهى نافرةٌ منّى، وأنا أؤانسها، وأبكى حسرة على يدها، وأعتذر إليها، وهى تظهر قَبول عذرى، وأنّ الذى بها غمّاً على يدها، وهى تزداد حُنقًا علىّ.

إلى أن نمتُ ليلةً، واستثقلتُ فى نومى، فأحسستُ بِثقْل على صدرى، فانتبهتُ جَزِعًا، فإذا زوجتى باركة على صدرى، وركبتاها على يدىَّ، مستوثقة منهما، وفى يدها سكّين، وقد أهْوَتْ لتذبحنى، فاضطربتُ.

ورُمْت الخلاص، فتعذّر، وخَشِيتُ أن تبادرَنى، فسكتّ، وقلت لها: كلّمينى، واعملى ما شئتِ.

فقالت لى: قل.

فقلت: ما يدعوكِ إلى هذا؟

قالت: أظننتَ أنّك قد قطعتَ يدى، وهتكتنى، وتزوّجنى مثلك، وتنجو سالمًا؟ والله لا كان هذا.

فقلت: أما الذبح، فقد فاتك، ولكنّك تتمكّنين من جراحات توقعينها بى، ولا تأمنين أن أفلتَ، فأذبحك، وأهرب أو أكشف هذا عليك، ثم أسلمك إلى السلطان، فتنكشف جنايتك الأولى، والثانية، ويتبّرأ منكِ أبوك، وأهلك، وتُقتلين.

فقالت: افعل ما شئتَ لا بدّ من ذبحك، وقد استوحش الآن كلّ منّا من صاحبه.

فنظرتُ، فإذا الخلاص منها بعيد، ولا بدّ من أن تجرح موضعًا من بدنى، فيكون فيه تلفى.

فقلت: ليس إلاّ العمل فى حيلة، فقلتُ لها: أوَ غير هذا؟

قالت: قل.

---

(١) افترع الفتاة: أزال بكارتها.

قلت: أطلّقك الساعة، وتفرجين عنّى، وأخرج غدًا عن البلد، فلا أراكِ، ولا ترينى أبدًا، ولا يُكشف لك حديث فى بلدك، ولا تفتضحى، وتتزوّجين بمن شِئتِ، فقد شاع أنّ يدك قُطِعت بخرّاج خبّثها، وتربحين الستر.

قالت: لا أفعل، حتى تحلف لى أنّك لا تقيم فى البلد، ولا تفضحنى أبدًا، وتعجّل لى الطلاق.

فطلّقتها، وحلفتُ لها بالأيْمان المغلَّظة أنّى أخرج، ولا أفضحها، فقامت عن صدرى تعدو، خوفًا من أن أقبض عليها، حتى رمت الموسى من يدها، بحيث لا أدرى أين هو، وعادت.

وأخذتْ تُظهِر أنّ الذى فعلته بى مُزاحًا، وأخذت تلاعبنى، فقلت: إليكِ عنى، فقد حَرُمْتِ علىّ، ولا تحلّ لى ملامستُك، وفى غد أخرج عنك.

فقال: الآن علمتُ صدقك، والله، لئن لم تفعل، لا نجوتَ من يدى، وقامت فجاءتنى بُصرة، وقالت: هذه مائة دينار، خذها نفقة لك، واكتب رُقعة بطلاقى، واخرج غدًا.

فأخذتُ الدنانير، وخرجتُ من سُحْرَةِ ذلك اليوم، بعد أن كتبتُ إلى أبيها، أنّى قد طلقتها ثلاثًا، وأنّنى خرجتُ حياءً منه.

ولم ألتق معهم إلى الآن.

●●●

٣- الرؤيا

حدثنى أبو المحسن أحمد بن يوسف الأزرق بن يعقوب بن إسحاق بن البهلول الأنبارى التَّنُوخى، قال:

خرج أخى أبو محمد الحسن بن يوسف، يقصد أخانا أبا يعقوب إسحاق ابن يوسف وهو حينئذ بمصر، ومعه زوجة كانت لأبى يعقوب إسحاق ببغداد، وبُنية له منها، ومضى.

فلما عاد حدثنى أنه سلك فى قافلة كبيرة، من «هَيْت» على طريق السماوة[١]، يريد دمشق، قال: فلما حصلنا فى أعماق السماوة، أخفرنا[٢] خفراؤنا، وجاء قوم من الأعراب، فظاهروهم علينا، وأظهروا أنهم من غيرهم، وقطعوا علينا، فاستاقوا ركائبنا، فبقيت أنا والناس مطرحين على الماء الذى كنا نزلنا عليه بلا جمل، ولا زاد، ولا دليل، فأيسنا من الحياة.

فقلتُ للناس: إن الموت لا بد منه على كل حال، أقمنا فى أماكننا أم سرنا، فلأن نسير فى طلب الخلاص فلعل الله أن يرحمنا ويخلصنا، أولى من أن نموت ههنا، وإن متنا فى سيرنا كان أعذر.

فساعدونى، وسرنا يومنا وليلتنا، وأنا أحمل الصبية ابنة أخى، لأن أمها عجزت عن حملها، وكلما طال علينا الطريق، ولم نر إنسانًا ولا محجة[٣]، أحسسنا بالهلاك، ومات منا قوم، وأنا خلال ذلك، قد بدأت بقراءة ختمة، وأنا متشاغل بها، وبالدعاء.

إلى أن وقعنا فى اليوم الثانى، على حلة[٤] أعراب، فأنكرونا، فلم أعمل عملاً، حتى ولجت بيت امرأة منهم، فأمسكت ذيلها، وكنت سمعت أن الإنسان إذا عمل ذلك أمن شرهم، ووجب حقه عليهم، ثم تفرقنا فى البيوت.

---

(١) من الطريف أن يكون حادث قطع الطريق فى قصة سابقة فى هذا الموقع نفسه ببادية الشام أو السماوة، وهذا يؤكد اضطراب الأمن فى المنطقة، وكثرة لصوص الأعراب.

(٢) أخفرتنا: غدرت بنا، وهذا ما حدث أيضًا فى القصة السابقة.

(٣) المحجة: الطريق.

(٤) الحلة: القرية أو ما يشبهها.

واختلفت أحوال الناس، فأما أنا، فإن صاحب البيت الذى نزلت عليه، لما رأى هيبتى ودرسى للقرآن، أكرمنى، ولم أزل أحادثه وأرفق به.

فقال لى: ما تشاء؟

فقلت: تركبنى وهذه المرأة، وهذه الصبية، راحلة، وتسير معنا إلى دمشق على راحلة أخرى، بزادٍ وماءٍ، حتى أعطيك ثمن راحلتك، وأهبها لك، وأقضى حقك بعد هذا.

قال: فتذمم[1] واستحيا، وقدرتُ أنى إذا دخلت دمشق، وجدت بها من أصدقاء أخى، من آخذ منه ما أريد.

فكسانى الأعرابى، وكسا المرأة والصبية، ووطأ لى راحلة، وحمل معنا من الماء والزاد كفايتنا، وركب هو راحلة أخرى، وكان أكثر من وصل معنا إلى ذلك الموضع، قد تأتّى لى، فصرنا رفقة صالحة العدد.

فلما كان بعد أيام، شارفنا دمشق مع طلوع الشمس، فإذا بأهلها قد خرجوا يستقبلوننا، وكل من له صديق أو معرفة، يسأل عنه، وقد بلغهم خبر القطع، فما شعرتُ إلا بإنسان يسأل عنى، بكنيتى ونسبى.

فقلت: هأنذا.

فعدل إلىّ: وقال: أنت أبو محمد الأزرقُ الأنبارىُّ؟

فقلت: نعم.

فقال: إلىّ، وأخذ بخطام راحلتى، وتبعنى الأعرابى براحلته، حتى دخلنا مع الرجل دمشق.

فجاء بنا الرجل، إلى دار حسنة سرية، تدل على نعمة حسنة، فأنزلنا، ولم أشك أنه صديق لأخى.

---

(١) تذمم: أظهر التعفف.

فنزلت، وأنزلتُ الأعـرابى معى، وأخـذت جمالنـا، وأدخلنا الحمام وألـبست خلعة نظيـفة، وفعل بالمرأة والـصبية مـثل ذلك، وأقمتُ عنده يومـين فى خفض عيش، لا أسأله عن شىء، ولا يسألنى.

فلما كان فى اليوم الثالث، قـال: ما صورة هذا الأعرابى معك[1]؟ فأخبرته بما أخذنا منه.

فقال لى: خذ ما تريد من المال.

فقلت: أريد كذا وكذا دينارًا، فأعطانى ذلك، فـدفعته إلى الأعرابى، وسلمت إليه جمليه.

وسألت الرجل أن يزوده زادًا كـثيرًا لا يكون مثله فى البـادية، فأخرج له شـيئًا كثيرًا، وخرج الأعرابى شاكرًا.

فقال لى الرجل: إلى أين تريد من البلاد، وكم يكفيك من النفقة؟

فلمـا قال لى ذلك، ارتـبتُ به، وقلت: لو كان هـذا من أصدقـاء أخى الذين كاتبهم بتفقدى، لكان يعرف مقصدى.

فقلت له: كم كاتبك أخى أن تدفع إلىّ؟

قال: ومن أخوك؟

قلت: أبو يعقوب الأزرق الأنبارى، الكاتب بمصر.

فقال: والله، ما سمعت بهذا الاسم قط، ولا أعرفه.

فورد علىّ أعجب مورد، وقلت له: يا هذا، إنى ظننتك صديقًا لأخى، وأن ما عـاملتنى به من الجميل من أجله، فـانبسطت إليك بالطلب، ولو لم أعتـقد هذا لانقبضتُ، فما السبب فيما عاملتنى به؟

فقال: أمر هو أوْكَدُ من أمر أخيك، يجب أن يكون انبساطك إليه أتمّ.

---

(١) يعنى ما علاقة هذا الأعرابى بك؟

فقلت: ما هو؟

قال: إنّ خبر الوقعة بالقافلة التى كنت فيها، بلغنا فى يوم كذا وكذا، فما بقى كبير أحد بدمشق، إلا وردت عليه مصيبة عظيمة، إما بذهاب مال، أو بغم على صديق، غيرى، فإنى لم يكن لى شىء من ذلك يتعلق قلبى به، واتعد الناس للخروج، لتلقى المنقطعين، وإصلاح أحوالهم، ولم أعزم أنا.

فلما كان فى الليل، رأيت النبى ﷺ فى النوم، وهو يقول لى: أدرك أبا محمد الأزرقَ الأنبارى، وأغثْه، وأصْلح شأنه بما يُبلغه مقصده، فلما أصبحتُ، خرجتُ مع الناس، فسألتُ عنك، فكان ما رأيتَ، والآن اذكر ما تريده.

فبكيت بكاءً شديدًا، لم أقدر معه على خطابه مدة، ثم نظرتُ إلى ما يبلغنى مصر، فطلبته منه، فأخذته، وأصلحتُ أمرى، وسألتُ الرجل عن اسمه، فقال: أنا فلان ابن فلان الصابونى..

قال: فلما بلغت إلى مصر، حدثت أخى بالحديث، فعجب منه، وبكى.

قال أبو الحسن: وضرب الدهر ضربه، وورد أبو يعقوب أخى إلى بغداد بعد سنين، فتذاكرنا هذا الحديث.

فقال أخى: لما عرفنى أخى أبو محمد، ما عامله به ابن الصابونى الدمشقى هذا، جعلته صديقًا لى، فكنت أكاتبه.

فلما وردتُ إلى دمشق، وجدتُ حاله قد اختلت، لمحَنٍ لحقته، فوهبتُ له ضيعتى بدمشق، وكانت جليلة الغلّة والقيمة، فسلّمتها إليه، مكافأةً لما عامل به أبا محمد أخى.

●●●

٤- ضَرْبَةُ حَظّ

خرج رجل من الكتّاب فى عسكر المعتصم إلى مصر، يريد التصرفَ[١]، فلم يحظ بشىء مما أمل، ودخل المعتصم بالله مصر.

قال: فحدَّثنى بعض المتصرفين عنه، قال: نزلتُ فى دارٍ بالقرب منه، فحدثنى الرجل بما كنت وقفتُ على بعضه.

قال: أصبحتُ ذات يوم، وقد نَفَدت نفقتى، وتقطعت ثيابى، وأنا من الهم، والغم، على ما لا يوصف عظمًا.

فقال لى غلامى: يا مولاى، أىَّ شىء نعمل اليوم؟

فقلت له: خذ لجام الدابّة، فبِعْه، فإنه مُحَلًّى، وابتع مكانه لجامًا حديدًا، واشتر لنا خبزًا سَمِيذًا، وجَدْيًا سمينًا، فقد قرِمْتُ إلى أكلهما، وعجل، ولا تدع أن تبتاع فيما تبتاعه كوز نبيذ شيرويّ[٢].

فمضى الغلام، وجلستُ أفكر فى أمرى، ومَن ألاقى، وكيف أعمل، وإذا بباب الدار قد دُقّ دقًا عنيفًا، حتى يكاد أن يُكسر، وإذا رَهَجٌ[٣] شديد.

فقلت لغلام كان واقفًا بين يدى: بادر، فانظر ما هذا.

فإلى أن يفتح الباب، كُسر، وامتلأت الدار بالغلمان الأتراك وغيرهم، وإذا بأشناس، وهو حاجب المعتصم، ومحمد بن عبد الملك الزيات، وهو الوزير، قد دخلا.

فطرحتُ لهم زُلِية[٤]، فجلسا عليها، وإذا معهما حفّارون.

---

(١) يريد التصرف: يبحث عن وظيفة.

(٢) السميذ: السميط، قرم إلى اللحم: اشتاق إلى أكله، وشيروى: نسبة إلى شيراز أو شخصه يصنعه.

(٣) رهج: غبار.

(٤) زلية: بساط، وهى فارسية، وتستخدم فى الخليج والعراق الآن ولكن يقال: زولية.

قال: فلما رأيتُ ذلك، بادرتُ فقبلت أيديهما، فسألانى عن خبرى، فخبرتهما إياه، وأننى قد خرجتُ فى جملة أهل العسكر، طلبًا للتصرف وذكرتُ حالى وما قد آلت إليه، فوعدانى جميلاً، والحفّارون يحفرون فى وسط الدار، حتى ترجل النهار[1]، وأنا واقف بين أيديهما، وربما حدثتهما.

فالتفت أشْناس إلى محمد بن عبد الملك فقال: أنا والله جائع.

فقال له محمد: وأنا -واللهِ- كذلك.

فقلتُ عند ذلك: يا سيدى، عند خادمكما شىء قد اتُّخذَ له، فإن أذنتما فى إحضاره أحضره.

فقالا: هات.

فقدمت الجدى: وما كان ابتيع لنا، فأكلا، واستوفيا، وغسلا أيديهما.

ثم قال لى أشناس: عندك شىء من ذلك الفن؟[2].

قلت: نعم، فسقيتهما ثلاثة أقداح.

وجعل أحدُهُما يقول للآخر: ظريف، وما ينبغى لنا أن نضيعه البائس.

فبينما الحال على ذلك، إذ ارتفع تكبيرُ الحفارين، وإذا هم قد كشفوا عن عشرين مرجلاً[3] دنانير، فوجهوا بالبشارة إلى المعتصم، وأخرجت المراجل.

فلما نهضا، قال أحدهما للآخر: فهذا الشقى الذى أكلنا طعامه، وشربنا شرابه، ندعه هكذا؟

فقال له الآخر: فنعمل ماذا؟

قال: نَحفِن له من كل مِرْجل حَفْنة، لا تؤثر فيه، فنكون قد أغنيناه، ونَصْدُقُ أمير المؤمنين عن الحديث.

---

(١) ترجل النهار: بلغ غايته، أى وقت الظهيرة.

(٢) السؤال عن «ذلك الفن» كناية عن النبيذ.

(٣) المرجل: الإناء أو القدر الضخمة.

ثم قالا: افـتح حجرك. وجـعل كل واحد، يحفِن له حَـفْنَة، من كل مِرْجَل، وأخذا المال، وانصرفا.

فنظرتُ، فإذا قـد حصل لى عشـرون ألف دينار، فانصرفتُ بهـا إلى العراق، وابتعتُ بها ضياعًا ولزمت منزلى، وتركت التصرف.

●●●

٥- عَوْدَةُ الغائِب

قال مؤلّف هذا الكتاب: وقد بلغنى حديث لعمرو بن مَسْعَدة فى زلاله[١]، أن عمروَ بنَ مسعدة، كان مُصَعداً من واسط إلى بغداد، فى حرٍّ شديد، وهو جالس فى زلال، فناداه رجلٌ: يا صاحب الزلال، بنعمة الله عليك إلا نظرتَ إلىّ.

قال: فكشف سَجْفَ الزلال، فإذا بشيخ ضعيف حاسرِ الرأس.

فقال له: قد ترى ما أنا عليه، ولستُ أجد مَن يحملنى، فابْتغ الأجر فىّ، وتقدم إلى ملاّحيك يطرحونى بين مجاديفهم، إلى أن أصل بلداً يطرحونى فيه.

قال عمرو بن مسعدة: فرحمته، وقلت: خذوه، فأخذوه، فغُشِىَ عليه، وكاد يموت لما لحقه من المشى فى الشمس.

فلما أفاق، قلت له: يا شيخ، ما حالك، وما قصتك؟

فقال: قصة طويلة.

فسكّنته وطرحتُ عليه قميصًا ومنديلاً، وأمرتُ له بِدَراهمَ وشَمْشَك[٢]، فشكرنى.

فقلت: لا بد أن تحدّثنى بحديثك.

فقال: أنا رجل كانت لله عَزَّ وجَلَّ علىَّ نعمة جليلة، وكنتُ صَيرْفَيّاً، فابتعتُ جارية بخمسمائة دينار، فعشقتها عشقًا عظيمًا، وكنتُ لا أقدر أن أفارقها ساعة واحدة، فإذا خرجتُ إلى الدكان، أخذنى كالجنون والهَيمَان، حتى أعود فأجلس معها يومى كله.

فدام ذلك حتى تعطل دكانى، وتعطل كسبى، وأقبلتُ أنفق من رأس المال، حتى لم يبق منه قليل ولا كثير، وأنا مع ذلك لا أطيق أن أفارقها..

---

(١) الزلال: نوع من سفن السفر الخاصة.

(٢) الشمشك: هو الشبشب بالفارسية.

فحَبِلَت الجارية، وأقبلتُ أنقض دارى، وأبيه نَقْضَها، حتى فَرَغْت من ذلك، فلم تبق لى حيلة.

فضربها الطَّلْقُ، فقالت: يا هذا، هو ذا أموت، فاحتل فيما تبتاع به عسلاً، ودقيقًا، وشيرجًا[1]، ولحمًا، وإلا متُّ.

فبكيتُ، وحزنتُ، وخرجتُ على وجهى، وجئتُ لأغرقِ نفسى فى دِجلة، فذكرتُ حلاوة النفس، وخوف العقاب فى الآخرة، فامتنعت.

ثم خرجتُ هائمًا على وجهى إلى النَّهْروَان، وما زلتُ أمشى من قرية إلى قرية، حتى بلغتُ خُراسان، فصادفتُ بها من عرفنى، وتصرّفت[2] فى ضياعه، ورزقنى الله عَزَّ وجَلَّ مالاً عظيمًا، فأثريت، واتَّسعت حالى، ومكثتُ سنين، لا أعرف خبر منزلى، فلم أشكّ أن الجارية قد ماتت.

وتراخت السنون حتى حصل لى ما قيمته عشرون ألف دينار.

فقلت: قد صارت لى نعمة، فلو رجعتُ إلى وطنى.

فابتعتُ بالمال كله، متاعًا من خُراسان، وأقبلتُ أريد العراق، من طريق فارسَ والأهْوَاز.

فلما حَصَلتُ بينهما، خرج على القافلة لصوص، فأخذوا جميع ما فيها، ونَجَوْتُ بثيابى، وعدتُ فقيرًا.

ودخلتُ الأهواز، فبقيتُ بها متحيرًا، حتى كشفتُ خبرى لبعض أهلها ممن أعرفه، فأعطانى ما تحملت به إلى واسط.

ونفدَتْ نفقتى، فمشيْتُ إلى هذا الموضع، وقد كدتُ أتلف، فاستغثتُ بك، ولى منذ فارقت بغداد، ثمان وعشرون سنة.

فعجبتُ من ذلك، وقلت له: اذهب، فاعرف خبرَ أهلك، وصرْ إلىَّ، فإنّى أتقدم بتصريفك فيما يصلح لمثلك، فشكر، ودعا، ودخلنا بغداد.

---

(١) الشيرج: زيت السمسم أو السيرج.

(٢) تصرفت: عملت أو توظفت.

ومضت على ذلك مدة طويلة، أنسيتُه فيها، فبينَا أنا يومًا، قد ركبتُ، أريد دار المأمون، وإذا بالشيخ على بابى، راكبًا بغلاً فارهًا، بمَرْكَبٍ محلى ثقيل، وغلامٍ أسودَ بين يديه، وثيابٍ حسنة.

فلما رأيته رحبت به، وقلت: ما الخبر؟

فقال: طويل، وها أنا آتى إليك فى غدٍ، وأحدثك بالخبر.

فلما كان من الغد، جاءنى، فقلت له: عرفنى خبرك، فقد سررتُ بسلامتك، وبظاهر حالك.

فقال: إنّى صعدت من زلاّلك، فقصدتُ دارى، فوجدتُ حائطها الذى يلى الطريق كما خلّفته، غير أن باب الدار كان مَجْلوًّا، نظيفًا، وعليه دكاكين، وبواب، وبغل مع شاكرية[1].

فقلت: إنّا للّه وإنّا إليه راجعون، ماتت جاريتى، وملك الدار بعضُ الجيران، فباعها من رجل من أصحاب السلطان.

ثم تقدّمتُ إلى بقّال كنتُ أعرفه فى المحلة، فوجدتُ فى دكانه غلامًا حَدَثًا.

فقلت له: مَن تكون من فلان البقال؟

فقال: أنا ابنه.

فقلت: ومتى مات؟

قال: منذ عشرين سنة.

قلت: لمن هذه الدار؟

قال: لابن داية أمير المؤمنين، وهو الآن صاحب بيت ماله.

قلت: بمن يُعرف؟

قال: بابن فلان الصيْرَفىّ، فأسمانى.

---

(١) الشاكرية: السيّاس (جمع سائس)، ويقصد بالدكاكين: المقاعد، أو ما نطلق عليه «الدكّة».

قلت: فهذه الدار مَن باعها إليه.

قال: هذه دار أبيه..

قلت: وأبوه يعيش؟

قال: لا.

قلت: أتعرف من حديثهم شيئًا؟

قال: نعم، حدّثنى أبى، أنّ والد هذا الرجل كان صيرفـيّاً جليلاً، فافتقر، وأنّ أمّ هذا الرجل ضربها الطَلْق، فخرج أبوه يطلب لها شيئًا، ففُقِد، وهَلَكَ.

وقال أبى: جاءنى رسول أمّ هذا، يـطلب لها شيئًا، وهى تستغـيث بى، فقمتُ لها بحوائج الولادة، ودفعتُ لهـا عشرة دراهم، فما أنفقتْهـا، حتى قيل: قد وُلد لأمير المؤمنـين الرشيد، مولود ذكر، وقـد عُرض عليه جمـيعُ الدايات، فلم يقبل ثديهنّ، وقد طُلِبَ له الحرائر، فـجاءوه بغير واحدة، فمـا أخذ ثدى واحدة منهن، وهم فى طلب مُرضع.

فأرشدتُ الذى طلب الداية إلى أمّ هذا، فحُمِلتْ إلى دار الرشيد، فحين وُضِع فمّ الصبى على ثديها، قَبِله، فأرضعته، وكان الصبى المأمون، وصارت عندهم فى حال جليلة، ووصل إليها منهم خير كثير.

ثم خرج المأمون إلى خُراسان، وخرجت هذه المرأة وابنُها هذا معها، ولم نعرف أخبـارهم إلاّ منذ قريب، لما عـاد المأمون، وعـادت حاشيـتُه، رأينا هذا قـد صار رجلاً، ولم أكن رأيته قَبْلُ قط، وقد كان أبى مات.

فقـالوا: هذا ابن فلان الصـيرفى، وابنُ داية الخليـفة المأمون، فـبنى هذه الدار وسواها.

فقلت: فعندك علم من أمُّهُ أهى حيّة أم ميتة؟

قال: هى حيّة، تمضى إلى دار الخليفة أيّامًا، وتكون عند ابنها أيّامًا هنا.

فحَمَدْتُ الله تعالى على هذه الحال، وجئت، حتى دخلت الدار مع الناس، فرأيتُ الصحن فى نهاية العمارة والحُسْن، وفيه مجلسٌ كبير مفروش بفُرُشٍ فاخرة، وفى صدره رجل شاب بين يديه كتّاب وجَهَابذة[1]، وحساب يستوفيه عليهم، وفى صفاف الدار وبعض مجالسها، جَهَابِذَةٌ بين أيديهم الأموال والتخوت، والشواهين[2]، يقبضون ويُقْبِضُون.

وبَصُرْتُ بالفتى، فرأيتُ شبَهِى فيه، فعلمتُ أنه ابنى، فجلستُ فى غُمار الناس، إلى أن لم يبق فى المجلس غيرى، فأقبل علىّ.

فقال: يا شيخ، هل من حاجة تقولها؟

فقلت: نعم، ولكنه أمر لا يجوز أن يسمعَه غيرُك.

فأومأ إلى غِلمان كانوا قيامًا حوله، فانصرفوا، وقال: قُلْ، أعزّكَ الله.

قلت: أنا أبوك.

فلمّا سمع ذلك تغيّر وجهه، ثم وثب مسرعًا، وتركنى مكانى.

فلم أشعر إلا بخادم جاءنى، فقال: قم يا سيدى، فقمت أسير معه، حتى بلغت ستارة منصوبة، فى دار لطيفة، وكرسى بين يديها، والفتى جالس على كرسى آخر.

فقال: اجلس أيّها الشيخ..

فجلستُ على الكرسى، ودخل الخادم، فإذا بحركة خلف الستارة.

فقلت: أظنّك تريد أن تختبر صدق ما قلتُ لك من جهة فلانة، وذكرتُ اسم جاريتى، أمّه.

قال: فإذا بالستارة قد كُشِفَت، والجارية قد خرجت إلىّ، فوقعت علىّ تقبّلنى وتبكى، وتقول: مولاى والله.

---

(١) الجهابذة: (جمع جهبذ) وهم الصيارفة ومحصلو الأموال.

(٢) التخت: صندوق يُحفظ به ميزان الذهب، والشاهين: الميزان.

قال: فرأيتُ الفتى، قد تشوّش، وبُهِتَ وتحيّر.

فقلت للجارية: وَيْحَكِ ما خبرك؟

فقالت: دع خبرى، ففى مشاهدتك، ممَّا تفضل الله عَزَّ وجَلَّ بذلك، كفاية، إلى أن أخبرك، فقُلْ ما كان من خبرك أنت؟

فقصصتُ عليها خبرى، منذ يوم خروجى من عندها، إلى يومى ذاك، وقصَّت هى، علىَّ قصتها، مثل ما قال ابن البقال، وأعجب، وأشرح، وكلّ ذلك بمرأى من الفتى ومسمع، فلما استوفى الحديث، خرج وتركنى فى مكانى.

قال: وإذا أنا بخادم، قال: يا مولاى، يسألك ولدك أن تخرج إليه.

قال: فخرجتُ إليه، فلما رآنى من بعيد، قام قائمًا على رجليه، وقال: معذرة إلى الله، وإليكَ يا أبة، من تقصيرى فى حقك، فإنه فجأنى من أمرك، ما لم أظنّ أنّه يكون، والآن، فهذه النعمة لك، وأنا ولدُك، وأميرُ المؤمنين مجتهد بى منذ دهر، أن أدَعَ هذه الجَهْبِذَة، وأتوفّرَ على خدمته فى الدار، فلا أفعل، طلبًا للتمسكَ بصنعتى، والآن، فأنا أسأله أن يرد إليك عملى، وأخدُمُه أنا فى غيرها، فقم عاجلاً، وأصلِحْ أمرك.

فأخذت إلى الحمّام ونُظِّفت، وجاءونى بخِلعة، فألبستها، وخرجتُ إلى حجرة والدته، فجلستُ فيها.

ثم أدخلنى على أمير المؤمنين، وحدّثتُه بحديثى، وخَلَعَ علىّ، وردّ إلىّ العمل الذى كان إلى ولدى، وأجرى علىّ من الرزق، فى كلّ شهر كذا، وقلّد ابنى أعمالاً هى من أجلّ عمله، وأضْعَفَ له أرزاقه، وأمره بلزوم حضرته فى أشياء استعمله فيها من خاصّ أمره.

فجئتُ لأشكركَ على ما عاملتنى به من الجميل، وأعرفك بتجدّد النعمة.

قال عمرو بن مَسْعدَة: فلما أسمى الفتى علِمتُ أنّه ابنُ داية المأمون، كما قال.

●●●

٦- فِراسَةٌ أو تَعارُفُ أرْواح؟!

عن رجل من أهل الكوفة، قال:

كنّا مع مَسْلَمة بنِ عبد الملك[١]، ببلاد الرّوم، فسبا سبايا كثيرة، وأقام ببعض المنازل، فعُرضَ السبيُ على السيف، فقتل خَلْقًا، حتّى عُرِضَ عليه شيخٌ كبير ضعيف، فأمر بقتله.

فقال له: ما حاجتك إلى قتل شيخ مثلي؟ إن تركتني حيّاً، جئتك بأسيرّين من المسلمين شابّين.

قال له: ومَن لي بذلك؟[٢].

قال: إنّي إذا وعدتُ وفيتُ.

قال: لستُ أثِق بك.

فقال له: دعني حتّى أطوفَ في عسكرك، لعلّي أعرف مَن يتكفّلُ بي إلى أن أمضي وأعود أجيء بالأسيرين.

فتوكّل به مَن يطوف به، وأمره بالاحتفاظ به، فما زال الشّيخ يطوف ويتصفّح الوجوه، حتّى مرّ بفتًى من بني كلاب، قائمًا يحسّ فرسه[٣].

فقال له: يا فتى، اضمنّي للأمير، وقص عليه قصّته.

فقال: أفَعْلَ، وجاء الفتى إلى مَسْلَمة، فضمنه، فأطلقه مسلمة.

فلمّا مضى، قال للفتى: أتعرفه؟

قال: لا، والله.

قال: فلمَ ضمنته؟

---

(١) أحد القادة الأبطال من البيت الأموي.

(٢) يعني: مَن يضمن صدقك؟

(٣) يحسّه: ينظفه. والمحسّة: آلة من حديد ذات أضراس يُزال بها الغبار عن الدابة.

قال: رأيته يتصفّح الوجوه، فاختارنى من بينهم، فكرهتُ أن أخْلُفَ ظَنّه فىّ.

فلمّا كان من الغد، عـاد الشيخ، ومعه أسيران شابّان من المسلمين، فـسلّمهما إلى مَسْلَمة، وقـال: إن رأى الأميرُ أن يأذن لهذا الفتى أن يصيـر معى إلى حصنى لأكافئَه على فعله.

فقال مسلمة للفتى الكلابى: إن شئتَ فامضِ معه.

فلمّا صار إلى حصنه، قال له: يا فتى، تعلم -واللَّهِ- أنّك ابنى؟

قال له: وكيف أكون ابنك، وأنا رجل من العرب مسلم، وأنت رجل من الرّوم نصرانى؟!

فقال له: أخبرنى عن أمّك، ما هى؟

فقال: روميّة.

قال: فإنّى أصفها لك، فباللَّهِ إن صَدَقْتُ، إلاّ صَدَّقْتَنِى.

قال: أفعلَ.

فأقبل الرّومى، يصف أمّ الفتى، ما خَرَم من صفتها شيئًا.

فقال له الفتى: هى كذلك، فكيف عرفتَ أنّى ابنها؟

قال: بالشبَّه، وتعارفِ الأرواح، وصدقِ الفراسة.

ثمّ أخرج إليـه امرأة، فلمّا رآها الفتى لـم يشكّ فيها أنهـا أمه لتقارُب الشّـبه، وخرجت معها عجوز كأنّها هى، فأقبلتا تقبّلان رأس الفتى، ويديه، وترشّفانه.

فقال له: هذه جدّتُك، وهذه خالتُك.

ثمّ اطّلع من حِصنه، فدعـا بشباب فى الصحراء، فأقبلوا، فكـلَّمهم بالرّومية، فأقبلوا يقبّلون رأس الفتى ويديـه، فقال: هؤلاء أخوالُك، وبنو خالاتك، وبنو عمّ والدتك.

ثمّ أخرج إليه حَلْياً كثيراً، وثيابًا فاخرةً، وقال: هذا لوالدتك عندنا منذ سُبِيَتْ، فخذه معك، وادفعه إليها، فإنّها ستعرفه، ثمّ أعطاه لنفسه مالاً كثيراً، وثيابًا، وحلياً، وحمله على عدّة دواب، وألحقه بعسكر مَسْلَمة، وانصرف. وأقبل الفتى قافلاً حتىّ دخل إلى منزله فأقبل يُخرج الشيء بعد الشيء مما عرّفه الشيخ أنّه لأمّه، وتراه أمّه، فتبكى، فيقول لها: قد وهبتُه لك.

فلمّا كثَّر عليها، قالت له: يا بنىّ، أسألك باللَّهِ، من أى بلد صارت إليكم هذه الثّياب، وهل تصف لى أهل هذا الحصن الذى كان فيه هذا؟

فوصف لها الفتى صفةَ البلد والحصن، ووصف لها أمّها وأختها، والرّجالَ الذين رآهم، وهى تبكى وتقلق.

فقال لها: ما يبكيكِ؟

فقالت: الشيخ واللَّهِ والدى، والعجوز أمّى، وتلك أختى.

فقصّ عليها الخبر، وأخرج بقيّة ما كان أنفذه معه أبوها إليها، فدفعه إليها.

●●●

٧- ابنُ التِّمْسَاح!!

وحكى أبو على محمد بن الحسن بن المظفّر الكاتب المعروف بالحاتِميِّ، قال:

رأيتُ بمصر رجلاً يُعرف بابن التمساح، فسألتُ جماعة من أهل مصر، من العامّة، عن ذلك.

فقالوا: هذا وَطِئَ التمساحُ أمّه، فولدته.

فكذّبْتُ ذلك، وبحثتُ عن الخبر، فأخبرنى جماعةٌ من عقلاء مصر، أن التمساح بها يأخذ النّاس من الماء فيفترسهم.

وربما أخذهم وهو شبعان، فيحمل المأخوذ بيده على صدره، حتى يجىء به إلى أجراف أسفلَ مصر بمسافة، وهى جبال حجارة فيها مغارات إلى النيل، لا يصل إليها الماشى ولا سالك الماء لبعدها عن الجهتين.

فيتسلّق التمساح إلى بعض المغارات، فيردع بها الإنسان الذى أخذه، حيّاً أو ميتًا بحسب الاتفاق، ويمضى.

فإذا جاع ولم يظفر بشىء، عاد إلى الموضع فيفترس الإنسان الذى خبّأه هناك.

قال: فكان قد قبض على امرأة فى بعض الأوقات، فجعلها فى المغارة، فذكرتْ المرأة، أنّها حينما استقرّت فى المغارة، وانصرف التمساح، رأت هناك رجلاً حيّاً، وآثار جماعة قد افترسهم التمساح.

وأنّها سألت الرجلَ عن أمره، فذكر أنّ التمساح تركه هناك منذ يومين.

قالت: وأخذ الرجل يؤانسنى بالحديث، إلى أن طالبنى بنفسى.

فقلت: يا هذا اتّقِ اللهَ.

فقال: التمساح قد مضى، ومن ساعة إلى ساعة فَرَج، ولعل أن تجتازَ بنا سفينة قبل عودته فنطرحَ أنفسنا إليها.

فوعظتُه، فلم يلتفت إلى كلامى، واغتصبنى نفسى، فواقعنى.

وما نزل حتى جاء التمساح، فأخذه من فوقى، ومضى، فبقيتُ كالميتة فزعًا.

فأنا كذلك، إذ سمعتُ وقْعَ حوافر الخيل، وصوتَ أقدام كثيرين، فأخرجت رأسى من الغار، وصحتُ واستغثتُ، فاطلع أحدهم.

وقال: ما أنت؟

فقلت: حديثى ظريف، أرموا لى حبلاً أتخلّص به إليكم.

فرموا لى حبلاً، فشددتُ نفسى، واستظهرتُ جهدى، وأطراف الحبل فى أيديهم.

فقلت: اجذبونى.

فجذبونى، فصرتُ معهم على ظهر المغارة، بعد أن تَوَهَّنْتُ، وتسلّخَتْ يدى.

فسألونى عن خبرى، فأخبرتهم، فأركبونى شيئًا، وأدخلونى البلد، فلمّا كان وقتُ عادة حيْضى، تأخّرت عنّى، ثم ظهر الحَمْل. فولدت ابنى هذا بعد تسعة أشهر.

وكرِهْتُ أن أخبر كل أحد بهذا الحديث، فنسبْتُ ذلك إلى التمساح واستَتَرَ أمرى بذلك.

●●●

٨- سَيِّدٌ محسُودٌ

منارةُ، خادمُ الخلفاء، قال:

رُفِعَ إلى هارون الرشيد، أنّ رجلاً بدمشق، من بقايا بنى أميّة، عظيم الجاه واسعَ الدُّنيا، كثير المال والأملاك، مطاعًا فى البلد، له جماعة أولاد ومماليك وموالى، يركبون الخيل، ويحملون السّلاح، ويغزون الرّوم، وأنّه سَمْحٌ جواد، كثيرُ البذل والضيافة، وأنَّه لا يؤمن منه فَتْقٌ لا يمكن رَتْقُهُ، فعَظُمَ ذلك على الرّشيد.

قال منارة: وكان وقوفُ الرّشيد على هذا وهو بالكوفة، فى بعض خَرْجاته إلى الحجّ سنة ست وثمانين ومائة، وقد عاد من الموسم، وقد بايع للأمين ثم المأمون ثم المؤتَمن[1].

فدعانى وهو خال، فقال لى: دعوتك لأمر أهمنى وقد منعنى النوم، فانظر كيف تكون؟ ثم قصّ علىّ خبر الأموى.

وقال: اخرج السّاعة، فقد أعددتُ لك الجمَازات[2]، وأزحتُ علّتَك فى الزاد والنّفقة والآلات، وضَمَمْتُ إليك مائة غلام، فاسلك البريَّة، وهذا كتابى إلى أمير دمشق، وهذه قيود، فادخل، وابدأ بالرجل، فإن سمع وأطاع، فقيّده، وجئنى به وإلا فتوكَّل به أنت ومن معك حتى لا يهرُب، وأنْفِذ الكتابَ إلى أمير دمشق، ليركب فى جيشه فيقبض عليه، وتجيئنى به، وقد أجّلتك لذهابك ستّاً، ولعودك ستّاً، ويومًا لمقامك، وهذا محمَل، تجعله -إذا قيّدته- فى شُقّه، وتجلس أنت فى الشّقّ الآخر، ولا تكل حفظه إلى غيرك، حتى تأتينى به فى اليوم الثالث عشر من خروجك، وإذا دخلتَ داره فتفقدْها، وجميع ما فيها، وأهله، وولده، وحاشيته،

---

(١) هنا مفارقة ذكية وطريفة من راوية القصة، فالرشيد يبايع لخلافته ثلاثة أجيال قادمة، مع هذا يخشى رجلاً محدود القدرة فى أطراف ملكه الواسع!!

(٢) الجمازات: الإبل السريعة المدربة على السفر عدواً.

وغلمانه، وقدْرَ النعـمة، والحال، والمحل، واحفظ ما يقوله الرّجل حـرفًا بحرف، بجمـيع ألفاظه، منذ وقـوع طرفك عليه، إلى أن تأتينى به، وإيّاك أن يـشذّ عليك شىء من أمره، انطلق مُصَاحبًا.

قـال منارة: فودّعـتُـه وخرجـتُ، فركـبنا الإبل، وطوينا المنازل، أسـيـر الليل والنّهار، ولا أنزل إلا للجمع بين الصلاتين، والبّول، وتنفيس النّاس قليلاً.

إلى أن دخلتُ دمـشق فى أوّل الليلة السّابعـة، وأبواب البلد مغلقـة، فكرِهْت طَرْقها، فنمتُ بظاهر البلد، إلى أن فُتح بابُه فى الغد، فدخلتُ على هيأتى، حتى أتيتُ باب دار الرجل، وعليـه صُفَفٌ عظيـمة، وحـاشيـة كثـيرة، فلم أسـتأذن، ودخلتُ بغير إذن.

فلما رأى القـوم ذلك، سألوا بعض أصـحابى عنّى، فقـالوا لهم: هذا منارة، رسولُ أمير المؤمنين إلى صاحبكم، فأمسكوا.

فلمّا صرتُ فى صَحْنِ الدّار، نزلتُ، ودخلتُ مجلسًا، رأيتُ فيه قومًا جلوسًا، فظننتُ أن الرّجل فيهم، فقاموا إلىّ، ورحبوا بى، وأكرمونى فقلت: أفيكم فلان؟

قالوا: لا، نحن أولاده، وهو فى الحمّام.

فقلت: استعجلوه.

فمضى بعـضهم يستعجله، وأنا أتفـقد الدّار، والأحوال، والحاشيـة، فوجدتُ الدّار قد مَاجَتْ بأهلها مَوْجًا شديدًا.

فلم أزل كذلك، حتى خرج الرّجل، بعد أن أطال، واستَرَبْتُ به، واشتدّ قلقى وخوفى من أن يتوارى.

إلى أن رأيتُ شيخًا قد أقبل بزىّ الحمّـام، يمشى فى الصّحن، وحوله جماعة، كهولٌ، وأحداثٌ، وصبيانٌ، هم أولاده، وغلمانٌ كثير، فعلمتُ أنه الرّجل.

فجـاء حتى جلس، وسلّم علىّ سـلامًا خفـيفًـا، وسألنى عن أميـر المؤمنين، واستقامة أمر حضرته، فأخبرته بما وجب.

فما انقضى كـلامه حتّى جاؤوه بأطباق الفاكهـة، فقال لى: تقدّم يا منارة فكُل معنا.

فقلت: ما بى إلى ذلك حاجة.

فلم يعاودنى، وأقبل يأكل هو والحاضرون معه، ثم غسل يديه، ودعا بالطعام، فجاؤوه بمائدة حسنة جميلة، لم أر مثلها إلا للخليفة، فقال: تقدّم يا منارةُ فساعدْنا على الأكل، لا يزيد على أن يدعونى باسمى، كما يدعونى الخليفة.

فامتنعتُ، فلم يعاودنى، وأكل هو وأولاده، وكانوا تسـعة، عددتهم، وجماعة كثيرة من أصحابه، وحاشيته، وجماعة من أولاده وأولاد أولاده.

فتـأمّلتُ أكله فى نفسه، فـرأيته أكْلَ الملوك، ووجـدتُ جأشـه رابطًا، وذلك الاضطراب الذى كان فى داره قد سكن، ووجدته لا يُرفع من بين يديه شىء، كان على المائدة، إلا وُهِبَ.

وقد كان غلمانه، لما نزلتُ الدّار، أخذوا جِمالى، وجميع غِلمانى، فعدلوا بهم إلى دار له، فما أطاقوا ممانعتهم، وبقيت وحدى، ليس بين يدى إلا خمسة أو ستة غلمانٍ وقوفٍ على رأسى.

فقـلتُ فى نفسى: هذا جـبّار عنيـد، فإن امـتنع علىّ من الشّخـوص، لم أطق إشْخَـاصَه بنفسى، ولا بمن معى، ولا حِـفْظه إلى أن يلحقنى أميـرُ البلد، وجَزِعتُ جَزَعًا شديدًا، ورابنى منه استخفافه بى، وتهاونه بأمرى، وأن يدعونى باسمى، وقلّةُ اكتراثه بامتناعى من الأكل والشرب، ولا يسألنى عمّا جئتُ له، ويأكل مطمئنّاً.

وأنا أفكّر فى ذلك، إذ فرغ من طعـامه، وغسل يديه، واستُـدْعى بالبخور، فتـبخّـر، وقام إلـى الصّلاة، فـصلّى الظهر صـلاة حسنة، وأكـثر من الدّعـاء والابتهال.

فلمّا انفتل من محرابه، أقبل علىّ، وقال: ما أقدمك يا منارة؟

فقلت: أمْرٌ لك من أمير المؤمنين، وأخرجتُ الكتاب، فدفعتُه إليه، ففضّه، وقرأه، فلما استَتَمْ قراءته، دعا أولاده، وحاشيتَه، فاجتمعوا، فلم أشك أنّه يريد أن يُوقعَ بى.

فلمّا تكاملوا، ابتدأ فحلف أيمانًا غليظةً. فيها الطّلاق، والعتاق، والحجّ، والصّدقة، والوَقْفُ، والحَبْس، إن اجتمع اثنان منهم فى موضع، وأن يتفرّقوا، ويدخلوا منازِلهم، ولا يظهر منهم أحد، إلى أن يَنكشفَ له أمر يعمل عليه.

ثم قال: هذا كتاب أمير المؤمنين يأمرنى بالمسير إلى بابه، ولستُ أقيم بعد نظرى فيه لحظةً واحدة.

وقال لغلمانه، وأولاده: استوصوا بمن ورائى من الحُرُم خيرًا، وما بى حاجة أن يصحَبنى غلام، هات أقْيَادَكَ يا منارة.

فدعوتُ بها، وكانت فى سَفَطٍ، فأحضَر حدّادًا، ومدّ ساقيه، فقيّدتُه، وأمرتُ غِلمانى بحمله حتى حَصَل فى المحمل، وركبت فى الشّقّ الآخر، وسرتُ من وقتى، ولم ألق أمير البلد، ولا غيره.

وسرتُ بالرّجل، ليس معه أحد، إلى أن صرنا بظاهر دمشق، فابتدأ يحدّثنى بانبساط، حتّى انتهينا إلى بُستانٍ حسن فى الغوطة، فقال: ترى هذا؟

فقلت: نعم.

قال: هو لى، وفيه من غرائب الأشجار كَيْتَ وكَيْتَ، ثم انتهى إلى آخر، فقال مثل ذلك، ثم انتهى إلى مزارع حسانٍ، وقرى سَرِيّة، فأقبل يقول: هذا لى، ويصف كل شىء فيها.

فاشتدّ غيظى منه، فقلتُ له: هل علمتَ أنى شديد التعجّب منك؟

قال: ولم؟

قلت: ألَسْتَ تعلم أن أمير المؤمنين قد أهمَّه أمرُك، حتّى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك، وولدك، ومالك، وأخرجك عن جميع حالك، وحيدًا،

فريدًا، مقيّدًا، لا تدرى ما يصير إليه أمرُك، ولا كيف تكون، وأنت مع هذا، فارغُ القلب، تصف بساتينك وضياعَك، هذا وقد رأيتك، وقد جئتُ، وأنت لا تعلم فيم جئتُ، وأنت ساكنُ القلب، قليل الفكر، وقد كنتَ عندى شيخًا عاقلاً.

فقال مجيبًا لى: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وأخطأتْ فِراستى فيك يا مَنارة، قدّرتُك رجلاً كاملا العقل، وأنك ما حللت من الخلفاء هذا المحل، إلا بعد أن عرفوك بذلك، فإذا عقلك وكلامُك يشبه كلامَ العَوَامّ وعقلهم، فالله المُستعان.

أمّا قولك فى أمير المؤمنين، وإزعاجه لى من دارى، وإخراجه إيّاى إلى بابه على هذه الصّورة، فأنا على ثقة بالله عَزَّ وجَلّ، الذى بيده ناصيةُ أمير المؤمنين، فلا يملك معه لنفسه، ولا لغيره، ضَرّاً ولا نَفعًا، إلا بإذن الله ومشيئته، ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافُهُ، وبعد، فإذا عرف أمير المؤمنين أمرى، وعَلِمَ سلامة جانبى، وصلاح ناحيتى، وأن الأعداء والحَسَدَة، رَمَونى عنده بما لست فى طريقه، وتقولوا علىّ الأباطيل الكاذبة، لم يستحل دمى، وتحرّجَ من أذاى وإزعاجى، فردنى مكرّمًا، أو أقامنى ببابه معظّمًا، وإن كان سبق فى قضاء الله تعالى، أنه يَبْدُرُ إلىّ ببادرة سوء، وقد حضر أجلى، وحان سَفْكُ دمى على يده، فلو اجتهدَتْ الملائكةُ والأنبياءُ وأهلُ السموات والأرض، على صَرْف ذلك عنى ما استطاعوا، فلِمَ أتعجّل الهم، وأتسلّف الفكرة والغمَّ، فيما قد فَرَغ الله منه، وأنا حسنُ الظنّ بالله الذى خلق ورزق، وأحيا وأمات، وفطر وجَبَلَ، وأحسن وأجْمَل، وأين الصّبرُ والرّضا، والتفويضُ والتّسليم إلى من يملك الدّنيا والآخرة، وكنتُ أحسَب أنّك تعرف هذا، فإذ قد عرفتُ مبلغَ فهمك، فإنى لا أكلّمك بكلمة، حتى تفرق بيننا حضرةُ أمير المؤمنين.

ثم أعْرَضَ عنّى، فما سمعتُ له لفظةً بغير القرآن والتسبيح، أو طلب ماء، أو حاجة تجرى مجراه، حتى شارفنا الكوفة فى اليوم الثّالث عَشَرَ بعد الظّهر، فإذا النُّجُبُ قد استقبلتنا على فراسخَ من الكوفة، يتجسّسون خبرى.

فلمّا رأونى رجعوا بخبرى إلى أمير المؤمنين، فانتهيتُ إلى الباب آخر النّهار، فدخلتُ على الرّشيد، فقبّلتُ الأرض، ووقفتُ بين يديه.

فقال: هات ما عندك، وإيّاك أن تُغفل منه لفظة واحدة.

فسُقت إليه الحديث من أوّله، حتّى انتهيتُ إلى ذكر الفاكهة والطّعام والغسل والطّهور والبَخور، وما حدّثتُ به نفسى من امتناعه منى، والغضب يظهر فى وجهه ويتزايد، حتى انتهيتُ إلى فَراغ الأمويّ من الصّلاة، وانْفِتَاله، وسؤاله عن سبب مقدمى، ودفعى الكتاب إليه، ومبادرته إلى إحضار ولده وأسبابه، ويمينه أن لا يتبعه أحد منهم، وصرفِه إيّاهم، ومدّ رجليه حتّى قيّدته، فما زال وجه الرّشيد يُسْفِر.

فلما انتهيتُ إلى ما خاطبنى به فى المحْمَل، عند توبيخى إيّاه، قال: صَدَقَ والله، ما هذا إلا رجلٌ محسود على النّعمة، مكذوبٌ عليه، ولقد أذيناه، ولعمرى لقد أزعجناه، وروّعناه، وروعنا أهله، فبادر بنزع قيوده عنه، وائتنى به. فخرجتُ، فنزعتُ قيوده، وأدخلته على الرّشيد، فما هو إلا أن رآه، حتى رأيتُ ما، الحياء، يدور فى وجه الرّشيد، ودنا الأموى، فسلّم بالخلافة، ووقف، فردّ عليه الرشيد، ردّاً جميلاً، وأمره بالجلوس، فجلس.

وأقبل عليه الرّشيد، ثم قال له: إنه بلغنا عنك فَضْل همّةٍ، وأمور، أحببنا معها أن نراك، ونسمع كلامك، ونُحسن إليك، فاذكر حوائجك.

فأجاب الأموى جوابًا جميلاً، وشكر، ودعا ثم قال: أما حاجتى، فما لى إلا حاجة واحدة.

فقال: مقضيّة، فما هى؟

قال: يا أمير المؤمنين، تردُّنى إلى بلدى، وأهلى، وولدى.

فقال: نحن نفعل ذلك، ولكن سَلْ ما تحتاج إليه من صلاح جاهك ومعاشك، فإن مثلك لا يخلو أن يحتاج إلى شىء من هذا.

فقال: عُمّال أمير المؤمنين مُنصفُون، وقـد استغنيْتُ بعَدْلِه عن مسألته، وأمورى منظمة، وأحوالى مستقيمـة، وكذلك أمور أهل بلدى بالعدل الشّامل فى دولة أمير المؤمنين.

فقال له الرّشيد: انصرف مـحفوظًا إلى بلدك، واكتب إلينا بأمرٍ إن عَرَضَ لك، فودّعه الأمويُّ.

فلمّا ولّى خارجًا، قال لى الرّشيد: يا منارة، احمله من وقتك، وسِرْ به راجعًا كما أتيت به، حتّى إذا أوصلتَه إلى المجلس الذى أخذته منه، فارجع وخله.

ففعلتُ ذلك.

●●●

٩- خُرافَةٌ تاريخيَّة

وردَ كتاب صاحب بريد الثغور الشاميّة، على عبد الملك، يخبره فيه أن خيلاً من الرّوم تراءَتْ للمسلمين، فنفروا إليها، ثم عادوا ومعهم رجلٌ كان قد أسِرَ فى أيام معاوية بن أبى سفيان، فذكر أن الرّوم لما تواقَفُوا مع المسلمين، أخبروهم أنهم لم يأتوا لحربٍ، وإنّما جاؤوا بهذا المسلم ليسلّموه إلى المسلمين، لأن عظيم الرّوم أمرهم بذلك.

وذكر صاحب البريد، أن النافرين ذكروا، أنّهم سألوا المسلم عمّا قال الرّوم، فوافق قوله قولهم، وذكر أن الرّوم قد أحسنوا إليه، فانصرفوا عنهم، وإنى سألته عن سبب مَخْرَجِهِ، فذكر أنه لا يخبر بذلك أحداً دون أمير المؤمنين.

فأمر عبد الملك بإشْخاص المسلم إليه، فأشْخص إلى دمشق.

فلما دخل على عبد الملك، قال له: من أنت؟

قال: قُبَاث بن رزين اللّخمى، أسكن فُسطاط مصر فى الموضع المعروف بالحمراء، أسرتُ فى زمن معاوية[1]، وطاغية الرّوم -إذ ذاك- توما بن مرزوق.

فقال له عبد الملك: فكيف كان فعله بكم؟

قال: لم أجد أحداً أشدّ عداوة للإسلام وأهله منه، إلا أنّه كان حليمًا، فكان المسلمون فى أيّامه أحسن أحوالاً منهم فى أيّام غيره[2]، إلى أن أفضى الأمر إلى ابنه ليون، فقال -فى أوّل ما ملك-: إنّ الأسرى إذا طال أسرهم فى بلدٍ، أنسوا به، ولو كان على غاية الرداءة، وليس شىء أنْكَأ لقُلوبهم من نقلهم من بلد إلى بلد، فأمر باثنى عشر قِدْحًا[3]، فكتب على رأس كل قدح اسم بَطْريق[4] من

---

(١) هذا يعنى أنه بقى فى أسر الروم أكثر من عشرين عامًا.

(٢) يقصد الأسرى المسلمين فى بلاد الروم.

(٣) القدح: السهم.

(٤) البطريق (فى لغة زمانهم) القائد من الروم (أو حاكم الإقليم = المحافظ فى زماننا وكما ستدل الحكاية)، وليس «رجل الدين» كما هو الآن من كلمة بطريق.

بطارقة البلدان، ويُضرب بالقِداح فى كل سنة أربع مرات، فمَن خرج اسمه فى القدْح الأوّل، حُوِّل إليه المسلمون، فاحتبسهم عنده شهرًا، ثمّ إلى الثانى، ثمّ إلى الثّالث، ثم تعاد القِداح بعد ذلك.

فكنّا لا نصير عند أحد من البطارقة، إلا قال لنا: احمدوا الله حيث لم يبتلكم ببطريق البَرْجان[1]، فكنّا نرتاع لذكره، ونحمد ربّنا إذ لم يبتلنا به. فمكثنا على ذلك سنين.

ثمّ ضُربت القِداح، فخرج الأوّل والثانى لبطريقين، والثالث لبطريق البَرْجان، فمر بنا فى الشهرين غمّ كبير، نترقّب المكروه.

ثمّ انقضى الشهران، فحُملنا إليه، فرأينا على بابه من الجمْع خلاف ما كنّا نعاين، ورأينا من زبانيته من الغِلظة خلاف ما كنّا نرى، ثم وصلنا إليه، فتبين لنا من فظاظته وغلظته، ما أيقنا معه بالهَلكة، ثم دعا بالحدادين، فأمر بتقييد المسلمين بأمثال[2] ما كان يقيّدهم به غيره، فلم يزل الحديد يعمل فى رِجْل واحد واحد، حتى صار الحدّاد إلىّ، فنظرت إلى وجه البطريق فرأيته قد نظر إلىّ نظرًا بخلاف العين التى كان ينظرُ بها إلى غيرى، ثم كلّمنى بلسان عربىّ، فسألنى عن اسمى ونسبى ومسكنى، بمثل ما سألنى عنه أمير المؤمنين، فصَدَقْتُهُ عمّا سألنى عنه.

ثم قال لى: كيف حفظُك لكتابكم؟ فأعلمته أنى حافظ.

قال: اقرأ آل عمران، فقرأتُ منها خمسين آيةً.

فقال: إنّك لقارئٌ فصيح، ثم سألنى عن روايتى للشعر، فأعلمته أنى راوية.

فاستنشدنى لجماعة من الشعراء، فقال: إنك لحسنُ الرواية.

ثم قال لخليفته: إنّى قد وَمِقتُ[3] هذا الرّجل، فلا تُحَدّده.

ثم قال: وليس من الإنصاف أن أسوءه فى أصحابه، ففكّ الحديد عن جماعتهم، وأحسنْ مثواهم، ولا تقصّرْ فى قِراهم[4].

---

(١) البرجان: اسم طائفة أو بلد فى شمال بلاد الروم.

(٢) أمثال: أضعاف. (٣) ومقه: أحبه أو مال إليه، فلا تقيده بالحديد.

(٤) القِرى (بكسر القاف): الضيافة.

ثمّ دعا صاحبَ مطبخه، فقال له: لستُ أطعَمُ طعامًا، ما دام هذا العربىّ عندى، إلا معه، فاحذر أن تُدخل مطبخى ما لا يحلّ للمسلمين أكلُه، وأن تجعل الخمر فى شىء من طبيخك، ثمّ دعا بمائدته، واستَدْنانى حتّى قعدتُ إلى جانبه.

فقلت له: فَدَتْكَ نفسى وبأبى أنت، أحبُّ أن تخبَرنى من أى العرب أنت؟

فضحك وقال: لستُ أعرف لسألتك جوابًا، لأنّى لستُ عربيًا فأجيبك على سؤالك.

فقلتُ له: مع هذه الفصاحة بالعربية؟

فقال: إن كان العلم باللّسان ينقل الإنسان من جنسه إلى جنس مَنْ حَفِظَ لسانَه، فأنت إذًا رومى، فإنّ فصاحتك بلسان الروم، ليست بدون فصاحتى بلسان العرب، فعلى قياس قولك ينبغى أن تكون روميًا، وأكون أنا عربيًا[1].

فصدّقتُ قوله، وأقمتُ عنده خَمْسَ عَشْرَةَ ليلة، لم أكن منذ خُلِقْتُ، فى نعمة، أكبرَ منها.

فلمّا كانت ليلة ستّ عَشْرَةَ، فكّرتُ أنّ الشّهر قد مضى نصفُه، وأن الليالى تقرّبنى من الانتقال إلى غيره، فبتُّ مغمومًا.

وصار رسوله إلىّ، فى اليوم السادس عشر، يدعونى إلى طعامه، فلمّا حضر الطعام بين أيدينا، رأى أكلى مقصرًا عمّا كان يعهد، فضحك، ثم قال لى: أحسبك يا عربىّ، لما مضى نصف الشّهر، فكّرتَ فى أنّ الأيام تقرّبك من الانتقال عنّى إلى غيرى ممّن لا يعاملك بمثل معاملتى، ولا يكون عيشك معه مثل عيشك معى، فَسَهِرت، واعتراكَ لذلك غمّ غيّر طعامك، فأعلمته أنّه قد صدق.

فقال: ما أنا إن لم أحسن الاختيار لصديقى بحرٍّ، وقد أمنّك اللّه ممّا حَذِرْت، ولم ألبث فى اليوم الذى وصلتَ إلىّ فيه، حتى سألت الملكَ، فصيّرك عندى، ما كنتَ فى أرض الرّوم، فلستَ تُنقل عن يدى، ولا تخرج منها إلاّ إلى

---

(١) هذا تعليل طريف مقبول لميل بطريق البرجان إلى الأسير العربى، أنه وجد لغته «الرومية» جيدة.

بلدك، وأرجو أن يسبّب اللّه ذلك على يدىَّ، فطابت نفسى، ولم أزل مقيمًا عنده، إلى أن انقضى الشهر.

فلمّا انقضى، ضُرِبَ بالقداح، فخرج الأوّل، والثّانى، والثالث، لبطارقة غير الذى نحن عنده، فحُوِّل أصحابى، وبقيتُ وحدى.

وتغدّيتُ فى ذلك اليوم مع البَطريق، وكان من عادتى أن أنصرفَ من عنده بعد غَدائى إلى إخوانى من المسلمين، فنتحدّث، ونأنس، ونقرأ القرآن، ونَجْمَعُ الصلوات، ونتذاكَرُ الفرائضَ، ويسمع بعضنا من بعض ما حفظ من العلم وغيره، فانصرفت ذلك اليوم بعد غَدائى إلى الموضع الذى كنتُ أصير إليه وفيه المسلمون، فلم أرَ فيه أحدًا إلاّ الكَفَرَة، فضاق صدرى ضيقًا تمنّيتُ معه أنّى كنت مع أصحابى، فبِتُّ بليلةٍ صعبة لم أطعمَ فيها الغَمْضَ، وأصبحتُ أكسفَ خَلْقِ اللّهِ بالاً، وأسوأهم حالاً.

وصار إلىّ الرسولُ فى وقت الغداء، فصرتُ إليه، فتبين الغمّ فى أسرَّة وجهى، ومددتُ يدى إلى الطعام، فرأى مدّ يدى إليه، خلافَ مدّى الذى كان يعرف، فضحك، ثمّ قال: أحسبك اغتممتَ لفراق أصحابك؟

فأعلمته أنّه صدق، وسألته: هل عنده حيلة فى ردّهم إلى يده.

فقال: إنّ الملك لم ير أن يُنقلَ أصحابُك من يدى إلى يد غيرى إلاّ ليغمَّهم بما يفعل، ومن المحال أن يدع تدبيره فى الإضرار بهم، لميْلى إليك ومحبّتى لك، وليس عندى فى هذا الباب حيلة، فسألتُه أن يسأل الملك إخراجى عن يده، وضمّى إلى أصحابى أكون معهم حيث كانوا.

فقال: ولا فى هذا أيضًا حيلة، لأنّى لا أستجيز أن أنقلَكَ من سَعَةٍ إلى ضيقٍ، ومن كرامة إلى هوان، ومن نعمة إلى شقاء.

فلمّا قال ذلك، تبين فىَّ الانكسار، وغلبة الغمّ، فقال لى: بَلَغَ بك الغمَ إلى النهاية؟

فأخبرته: أنّه قد بلغ بى الغمّ، أن اخترتُ الموت على الحياة، لعلمى أنّه لا راحة لى بغيره.

فقال لى: إن كنتَ صادقًا، فقد دنَا فَرَجُك.

فسألته عمّا دلّه على ذلك، فـقال لى: إنّى وقعتُ فى نَكَبات أشدَّ هولاً ممّا أنتَ فيه، وكان عاقبتها الفَرَج.

وأعلمنى أنّ بَطْرَقَة بـلده لم تزل فى آبائه يتوارثونها، وأنّ عـددهم كان كثـيرًا، ولم يبق غيرُ أبيه وعمه، وكانت البَطْرَقَـةُ إلى عمّه دون أبيه، فابطآ على أبيه وعمه الولد[1]، فبذلا للمُتَطَّبِبين الكثير من الأمـوال لعلاجهما بما يُصلح الرجالَ للنساء، إلى أن بَطَل العمّ، ويئس من الانتـشار، فصرف بعضُ الأطبـاء عنايته إلى معـالجة أبى البطريق، فعَلِقَتْ أمّه به.

فلمّا علم العمّ أنّه قد عَلِقَتْ أمُّه به، جمع عِدّةً من الحُبالى، من ألْسنة مختلفة، منها العربى، والرّومى، والإفرنجى، والصّقـلابى، والخَزَرِى، وغير ذلك، فوُضعِن فى داره.

فلمّا وضعتْ البطريقَ أمُّه، أمر بتصيير أولئك النّساء كلّهن معه، وتقدَّمَ إلى كلّ واحدة منهنّ، ألاّ تكلّمه إلاّ بلسانها.

فلم تَسْتَتِمّ له أربع سنين، حتّى تكلمّ بكلّ الألسنة التى لأمّهاته اللاتى أرضعنَه.

ثمّ أمر بتصيـير مُلاعبيه ومؤدّبيه من جـميع أجناس النّساء اللّواتى ربّيْنه، فكانوا يعلّمونه الكتابة، وقراءةَ كتبهم فلم تمرّ عليه تِسْعُ سنين، حتّى عرف ذلك كلّه.

ثمّ أمر عـمُّه أن يُضمّ إليـه جمـاعة من الفـرسان يعلّمونـه الثّقافـةَ والـمُنازلة، وجمـيع ما يتـعلّمه الفـرسان، وتقـدّم بمنعه من سُكْنَى المنازل، وأمـر أن ينزل فى المضارب، وأن يُمنع من أكل اللحم إلاّ ما يصيده طائرٌ يحمله على يديه، أو كلبٌ يسعى بين يديه، أو صيدَ بسهمه، فكانت تلك حاله حتى استوفى عشْرَ سنين، ثمّ

(١) بمعنى أنهما لم ينجبا.

مات عـمّه، وَوَلِيَ أبوه البطرقةَ بـعد عمّـه، وأمره القُدُوم عليـه، فلما رآه، ورأى فهمـه، وأدبه، وشمائله، اشتـدّ عُجْبُهُ به، فسـمح له بما لم تكن الملوك تسمح به لأولادها، وأعدّ له المضارب والفساطيط[1] الدّيباج، وضمّ إليه جماعـةً كثيفةً من الفـرسـان، ووسّع على الجـميع فـى كلّ ما يـحتـاجـون إليـه، وردّه إلى سُكنى المضارب، وأخذه بالاستبعاد عن منازل أبيه.

قال البطريق: فلمّا تمت لى خَمْسَ عَشْـرَةَ سنة، ركبتُ يومًا لارتياد مكان أكون فيه، فـبَصُرْت بغدير مـاء قدّرت طوله ألف ذراع وعرضَه ما بين ثـلثمائة ذراع إلى أربعمائة ذراع، فأمـرتُ بضرب مضاربى عليه، وتوجّهتُ إلى الـصيد، فرزقتُ منه فى ذلك اليـوم، ما لم أطمع فى مـثله كثرةً، ونـزلتُ فى بعض المضارب فـأمرتُ الطبّاخين، فطبخوا لى ما اشتهيتُ من الطعام، ثمّ نُصِبَتْ المائدةُ بين يدىَّ.

فإنّى لأنظر إلى الطبيخ يُـغرف، إذ سمعتُ ضجّة عظيـمة، فما فهـمتُ خبرها حتّى رأيتُ رؤوس أصحـابى تتساقط عن أبدانهم، فـتنحّيتُ عن مكانى الذى كنتُ فيه، وخلـعتُ الثّياب التى كانت علىّ، ولبـستُ ثيابَ بعض عبيـدى، ثمّ ضربتُ ببصرى يَمنة ويَسرة، فلم أر حولى إلاّ مقـتولاً، وإذا فاعل ذلك بأصحابى مَنْسِر[2] من مناسر البَرجان.

ثمّ أسِرتُ كما يؤسر العبيد، واحتُمِل جـميع ما كان معنا، من مضرب وغيره، وصاروا بى إلى ملك البَرجان.

فلمّا رآنى، ولم يكن له ولـد ذَكَر، أمر بالتوسـعة علىّ، وأن أكون واقـفًا عند رأسه، وسمّانى ابنَه.

وكان للملك بنت، وكـان بها مُغـرمًا، وكان قـد علّمها الفـروسية، ومـساورةَ الفرسان، ومساهمتَهم ومراكضتَهم.

---

(١) جمع فـسطاط، وهو الخيمة. والديباج: الحرير.

(٢) المنسر: عصابة اللصوص كبيرة العدد، فى مصر تفخم السين وتنطق «مَنْصَر».

فقال -وأنا حاضر- لجماعة من بطارقته: مَن منكم يتوجّه إلى ملك الرّوم فيجيئنى بكاتب من بلده، ليعلّمَ ابنتى الكتابة.

فأعلمته أنّ رسوله لا يأتيه بأكتبَ منّى.

فأمرنى أن أكتب بين يديه، فكتبتُ، فاستحسن خطّى، وقرنه بكتب كانت تَرِدُ عليه من والدى، فرأى خطّى أجودَ منها، فدفع إلىّ ابنته، وأمرنى أن أعلّمها الكتابة، فَهَوِيتُها، وهَوِيَتْنى.

فمكثتْ معى حتّى استوفت ثلاثَ عَشْرَةَ سنة، ثمّ عَدَتْ إلىّ يومًا وهى باكية، فقلت لها: ما يُبكيك يا سيّدتى؟

فقالت: دعنى، يحقُّ لى البكاء، فسألتها عن السبب.

فقالت: كنتُ جالسة بين يدىْ أبى وأمّى فى هذه اللّيلة، فغلبتنى عينى، فنمت، فسمعت أبى يقول لأمّى: أرى ثَدْيَىْ ابنتك قد تَفَلَّكَا[1]، وأرى هذا الرّومى قد غَلُظَ كلامُه، وليس ينبغى أن يجتمعا بعد هذا الوقت، فإذا جلستْ غدًا معه، فابعثى إليهما مَن يفرّق بينهما، حتّى لا يراها، ولا تراه.

قال البطريق: ومن سُنَّة البَرجانِ، أن يكون الرّجل يخطب لابنته زوجًا، حتّى يزوّجها، ولا يخطب لها إلاّ مَن تختاره البنت.

قال البطريق: فقلتُ لابنة الملك، إذا سألك أبوكِ، مَن تحبّين أن أخطب لك من الرّجال، فقولى: لستُ أريد إلا هذا الرّومى.

فغضبَتْ، وقالت: كيف يجوز أن أسأل أبى أن يزوّجنى بِعَبْد؟

قال: فقلت لها: ما جعلنى اللّه عبدًا، وأنا ابنُ ملك، وأبى ملك الرّوم.

قال البطريق: وأهل البَرجان، يسمّون البطريقَ الرومىَّ الذى يتولّى حدّ برجان: ملك الرّوم.

---

(١) تفلكا: نسبة إلى الفلك، وهو مستدير، والمعنى أنها كبرت واستدار ثديها.

فسألتنى: هل أخبرتُها بحقّ؟

فأعلمتها أنّه حقّ.

فما انقضى كلامنا، حتّى جاء رسول الملك، ففرّقوا بيننا، ولم يمض بعد ذلك، إلاّ ثلاثة أيّام حتى دعانى الملك، فدخلتُ عليه، فرأيتُ أمارات الشّر مستحكمةً فى وجهه.

فقال لى: يا شقىُّ، ما حملك على الكَذِب فى نسبِك؟ وأنا أحكم على مَن انتسب إلى غير أبيه بالقتل.

فقلت له: ما انْتَسَبْتُ إلى غير أبى.

فقال لى: أتقول إنّك ابنُ ملك الرّوم؟

فأعلمته أنى أقول ذلك، ودعوته إلى الكشف عنه.

فقال: لستُ أحتاج إلى كشف أمرِكَ برسولٍ أرسله ليَعرفَ خبرَك، ولكن لى أشياء أمتحنك بها، فأعرف صدقك من كذبك، فدعوته إلى كشفها بما شاء.

فدعا بدابّة، ولَبْد، وسَرْج، ولجام، فأمرنى بتناول الدابة، فأخذتُ الدّابة من يد السائس، ثمّ أمرنى بأخذ اللّبْد، فأخذته، ثمّ أمرنى بإلقائه على الدّابة، فَفَعَلْتُ ما أمرنى به، ثمّ أمرنى بتناول السرج، فأخذته، ثمّ أمرنى بشدّ الحزام، والثّفر، واللَّببَ[1]، وأخذ اللّجام وإلجام الدابّة، ففعلتُ ذلك، ثمّ أمرنى بركوب الدابّة، فركبت، وأمرنى بالسيّر فسرِت، وأمرنى بالإقبال والإدبار، ففعلت، ثمّ أمرنى بالنزول، فنزلت.

فقال عند ذلك: أشهد أنّه ابن ملك الرّوم، لأنّه أخذ الدابّة أخْذَ ملك، وعمِل سائرَ الأشياء مثلما تعمله الملوك، فاشهدوا أنّى قد زوّجته ابنتى.

فلمّا قالوا: شهِدنا، قال: لا تشهدوا.

---

(١) الثفر: سير من الجلد يشد على مؤخرة الدابة، واللبب (عكه): ما يشد فى صدر الدابة.

فلمّا سمعت قوله: لا تشهدوا، تخوّفتُ أن يأتى على نفسى.

ثمّ قال لى: لم أتوقّف عن الشّهادة رغبة عنك، ولكنّا لنا شرط لا نقدر أن نخالفه، ولم نأمن أن تُضطر إليه، فنحملك على شرطنا، وهو ما لم نخبرك به، ونوقفك عليه، فنكون قد ظلمناك، أو ندع لك سُنَّة بلدنا، فنكون قد فارقنا سُنَّتنا، إنّ سُنَّتنا يا رومى، أن لا نفرّق بين الزوجين إذا مات أحدُهما، فإن مات الرجل قبل المرأة، نومناها معه فى نعشه، وحملناهما معًا، حتّى ننزلهما إلى بئر هى مأوى موتانا، وجعلنا معهما طعامًا وشرابًا لثلاثة أيام، ثمّ أنزلناهما إلى البئر، فإذا صارا إلى قرارها سيّبنا الحبال عليهما، وكذلك إن ماتت المرأة قبل الرجل، جعلناها فى سريرها، وجعلنا زوجها معها، وصيرناهما جميعًا فى البئر، فإن رَضِيتَ بهذه السُّنَّة فبارَكَ اللّه لك فى زوجك، وإن لم ترض أقَلْنَاك، فلسنا نزوّجك، ولا تستقيم لنا على خلاف سُنَّتنا، فأحوجتنى الصبابة بها أن قلت: قد رَضِيتُ بهذه السُّنَّة.

فأمر بتجهيزها وتسليمها إلىّ، وجمع بيننا، فأقمتُ معها أربعين يومًا، لا نرى إلاّ أنّا قد فزنا بمُلك الدنيا.

ثمّ اعتلّت علّة كانت معها غَشْيَة، لم يشكّ كلّ من رآها إلاّ أنّها قُبِضَتْ، فجُهِّزَتْ بأفخر ثيابها، وجُهِّزتُ معها بمثل ذلك، وحُمِلْنا على نعش واحد، وركب الملك، وأهل الملكة، فشيّعونا حتّى وافوا بنا شَفِيرَ البئر، ثمّ شدّوا أسافل السرير بالحبال، وجعلوا معنا فى النعشِ طعامًا وشرابًا لثلاثة أيام، ثمّ حطّونا حتّى صرنا إلى قرارة البئر.

ثمّ أرخَيتْ علينا الحبال، فسقط حبل منها على وجه الجارية، فأزال الوجعُ ما كان بها من الغَشْيِ، فانتبهت، فلمّا انتبهَتْ، رأيتُ أنّ الدنيا قد جُمِعَتْ لى.

واستمرّت عينى على الظلمة، فرأيتُ فى الموضع الذى أنا فيه، من الخبز اليابس والخمر ما له دهر كثير، فأخذنا نتغذّى به جميعًا.

وكنّا لا نعدَم فى يوم من الأيّام، إلاّ النادر، سريرًا يُدلَّى فيه زوجان، أحدهما ميت، والآخر حى، فإن كان النّازل رجلاً حيًّا، تولّيتُ أنا قتلهَ، لئلا يكون مع

زوجتى غيرى، وكذلك إن كانت الحيّة امرأة، تولّت زوجتى قتلها، لئلا يكون مع زوجها غيرها.

فمكثنا فى البئر على هذه الحال أكثر من سنة، ثمّ دلّى فى البئر دَلْوَ، فعلمت أنّ مدلّى الدلو غيرُ برَجانى، وأنّه لا يدخل ذلك الموضع غير برجانىّ، إلاّ رومى، ووقع لى أن أقدّم الجارية قبلى، لتتخلّص، ثمّ تعرّفهم حالى، فيردّوا إلىّ، فأصعَد.

فحملت بنت الملك فجعلتها فى الدلو بكُسْوَتِها، وحُلِيِّها، وجواهرها، واجتذب القوم الدلو، فخرجت إليهم الجارية.

فإذا القوم مماليكُ لأبى، ولم ينتبهوا للسؤال عنّى، وهابتهم الجارية، أن تقول لهم شيئًا، وقد كانوا رأوا ما فيه أمى وأبى، وما غلب عليهما من الحزن لفقدى، فصاروا إليهما بالجارية ليتسلّون بها، فسُرَّا بها، وسكنا إليها.

واستمرّت هيبة الجارية لهما فحَصَلت شرَّ محصل.

وقد كان لوالدى صديق، له أدب وحكمة، وعلم بالتصوير، صوّر لهما صورتى فى خشبة، وزوّقها، وجعلها فى بيت، وقال لأبوى: إذا ذكرتما ابنكما، واشتدّ غمكما، فادخلا فانظرا إلى هذه الصورة، فإنّكما ستبكيان بكاءً كثيرًا يعقبكما سَلْوة.

فلمّا صارت الجارية إلى أبوى، ورأتهما يدخلان ذلك البيتَ كثيرًا، ويخرجان، وقد بكيا، استْقفَتْهُما يومًا، وهما داخلان، فبصُرت بالصوّرة، فلمّا رأتها لطمت وجهها، ونتفت شعرها، ومزّقت ثيابها..

فسألاها عن السبب فيما صنعت بنفسها، فقالت: هذه صورة زوجى، فسألاها عن اسمه، واسم أبيه وأمّه، فأسْمَتهم جميعًا.

فقالا لها: فأين زوجك؟

قالت: فى البئر التى أخرجت منها، فركب أبى وأمّى فى أكثر أهل البلد، ومعهم الغلمان الذين أخرجوا الجارية من البئر، حتّى وافوا البئر فدلّوا الدلو،

وكنتُ قد سللتُ سيفى الذى كان أنزل معى من غمده، وجعلت ذُبَابه بين ثديى لأتكئ عليه، فأخرجه من ظهرى، فأستريح من الدنيا، لغلبة الغمّ علىّ، فوثبت، فقعدت فى الدّلو، واجتذبونى حتّى خرجت، فوجدت أبى، وأمىّ، وامرأتى، على شفير البئر، وقد أحضروا لى الدواب لأركب وأنصرف إلى بلادى، وكان أبى قد صار ملك تلك البلاد، فلم أطعهما، وأعلمتهما أن الأصوب البعثة إلى أبى الجارية، وأمها، حتّى يريا ابنتهما مثلما رأيتمانى.

ففعلاً ذلك، ووجّهَا إلى أبى الجارية، وهو صاحب البَرجان، فخرج فى أهل مملكته، حتّى عايَنَها، وأقاموا عُرْسًا جديدًا، وحدثت مهادنة بين الرّوم والبَرجان، جرت فيها أيمان مؤكدة أن لا يعدو أحدهما على صاحبه ثلاثين سنة، وصار القوم إلى بلادهم، وصرنا إلى منازلنا.

قال: ومات أبى، فورَثت البَطْرقة عنه، ورُزِقت من بنت ملك البَرجان الولد، وأنت يا عربى، فإن كان الغمّ قد بلغ منك إلى ما ذكرتَ فقد جاءك الفَرَج.

فما انقضى كلام البطريق، حتّى دخل عليه رسولُ ملك الرّوم يدعوه، فمضى إليه، ثمّ عاد إلىّ، فقال: يا عربىّ، قد جاءك الفَرَج، كنتُ عند الملك، وقد جرى ذِكْرُ العرب، ورمتهم البطارقةُ عن قوس واحدة، فذكروا أنّهم لا عقولَ لهم ولا آداب، وأنّ قهرهم الرّوم بالغلبة والاتّفاق، لا بِحُسْنِ التدبير.

فأعلمتُ الملك أنّ الأمر بخلاف ما قالوا، فإنّ للعرب آدابًا، وأذهانًا، وتدبيرًا جيّدًا.

فقال لى الملك: أنت لمحبّتك لضيفكَ العربىّ تُفْرِطُ فى إعطاء العرب ما ليس لها، وتصفها بما ليس فيها.

فقلت: إن رأى الملك أن يأذن فى إحضار هذا العربى، ليجمعَ بينه وبين هؤلاء المتكلّمين، ليعرف فضيلته، فأمرنى بحملك إليه.

فقلت: بئس ما صنعتَ بى، لأنّى أخاف إن غلبنى أصحابه أن يستخف بى، وإن غلبتُهم أن يَضْطَغِنَ علىّ.

فقال: هذه صفة العامة، والملوك على خلافها، وأنا أخبرك أنّك إن غلبتهم جللتَ فى عين الملك، وكنتَ عنده بمكان يقضى لك فيه حاجة، وإن غلبوك سرّه غَلَبَة أهل دينه لك، فأوْجَبَ لك أيضًا بذاك ذِمامًا[1]، وإنّ أقلّ ما يرى أن يقضى لك حاجة، فإن غَلَبتَ أو غُلبتَ فسله إخراجك من بلده، وردَّك إلى بلادك، فإنَّه سوف يفعل ذلك.

قال قباث: فلمّا دخلتُ على الملك، استدنانى، وقرّبنى، وأكرمنى، وقال لى: ناظِرْ هؤلاء البطارقة.

فأعلمته، أنّى لا أرضى لنفسى بمناظرتهم، وأنّى لا أناظر إلاّ البطريقَ الأكبر، فأمر بإحضاره.

فلمّا دخل، سلّمتُ عليه، وقلتُ له: مرحبًا أيّها الشّيخ الكبير القَدْر.

ثمّ قلت له: يا شيخ، كيف أنت؟

قال: فى عافية.

قلت: فكيف أحوالُك كلُّها؟

قال: كما تحبّ.

فقلت له: فكيف ابنُك؟

فتضاحكت البطارقةُ كلُّها، وقالوا: زعم البطريقُ - يعنون الذى هو صديقى - أنّ هذا أديب، وأنّ له عقلاً، وهو لا يعلم بجهله، أنّ الله تعالى قد صان هذا البطريق عن أن يكون له ابن.

فقلت: كأنّكم ترفعونه عن أن يكون له ابن؟

قالوا: إى واللَّه، إنّا لنرفعه، إذ كان اللَّه رفعه عن ذلك.

فقلت: واعجبًا، أيَجِلُّ عبد من عبيد اللَّه، أن يكون له ابن، ولا يَجِلُّ اللَّه تعالى، وهو خالق الخلائق كلّها، عن أن يكون له ابن.

---

(١) الذمام: الحرمة والمنزلة.

قال: فنَخَرَ البطريقُ نَخْرَةً أفزعتنى، ثمّ قال: أيّها الملك، أخْرِجْ هذا السّاعة عن بلدك، لا يُفسد عليك أهله.

فدعا الملك بالفرسان، فضمّنى إليهم، وأحضر لى دوابَّ البريد، وأمر بحملى عليها، وتسليمى إلى مَن يلقانا فى أرض الإسلام من المسلمين، فسلّمونى إلى مَن تسلّمنى من أهل الثّغر.

ثمّ ذكر حديثًا لعبد الملك، مع الرّجل، لا يتعلّق بهذا الباب فأذكره، واللّه سبحانه وتعالى أعلم بالصوّاب.

●●●

١٠- لا يحضُرُ دَعْوةً.. لا يُشَيِّع جِنَازة!!

حدّثنى عبيدُ اللَّه بن محمد، قال: حدّثنا أبو أحمد الحسين بن موسى الموسوى العلوى النّقيب، قال:

حدّثنى شيخ كان يخدُمنى، وقد تجارْينا أحاديث النّاس، فقال: إنّه حلف بالطلاق، ألاّ يحضُرَ دعوة، ولا يشيّع جنازة، فسألته عن ذلك.

فقال: كنتُ انحدرتُ إلى البَصرة من بغداد، فصعدتُ إلى بعض مشارع[1] البصرة عشاءً، فاستقبلنى رجل، فكنّانى بغير كُنْيتى، وبشَّ فى وجهى، وأحْفَى، وجعل يسألنى عن قوم لا أعرفهم، ويحلف علىّ فى النّزول عنده.

وكنتُ غريبًا، لا أعرف مكانًا، فقلت: أبيتُ عنده الليلة إلى غدٍ، فأطلبُ موضعًا.

فموَّهْتُ عليه فى القول، فجذبنى إلى منزله، وكان معى رَجُلٌ صالح، وفى كمّى دراهم كثيرة.

فدخلتُ إليه، فإذا عنده دعوةٌ، والقوم على نبيذ، وقد خرج لحاجة، فشبّهنى بصديق له، وتَمَوَّه عليه أمرى لسُكْرِه.

وكان فيمن عنده، رجلٌ له غلام أمرد، فلمّا أخذوا مضاجعهم للنّوم، أرِقْتُ من بينهم.

فلمّا كان بعد ساعة، رأيتُ واحدًا من الجماعة، قد قام إلى الغلام الأمرد، فَفَسَق به، ورجع إلى موضعه، وكان قريبًا من صاحب الغُلام.

واستيقظ فى الحال صاحبُ الغلام، فتقدمَ إلى غلامه ليفْسُقَ به.

فقال له: ما تريد؟ ألم تكن الساعة عندى، وفعلتَ بى كذا وكذا؟

فقال: لا.

---

(١) المشارع جمع مشرعة، وهى «المورَدة».

فقال: قد جاءنى السّاعةَ مَن فعل بى، وظننته إيّاك، فلم أتحرّك، ولم أظنّ أنّ أحدًا يَجْسُرُ عليك.

فنَخَرَ الرّجل، وجرّد سكينًا من وَسَطِه، وقام، وأنا أرْعَدُ، فلو كان دنا منّى، حتّى يجدنى أرعد، لقتلنى، وظنّ أنّى صاحب القصّة.

فلما أراد اللّه عَزَّ وجَلَّ، من بقاء حياتى ما أراد، بدأ بصاحبه، فوضع يده على قلبه، فوجده يخفُق، وقد تناوَمَ عليه، يرجو بذلك السلامة، فوضع السكّين فى قلبه، وأمسك فَاهُ، فاضطرب الرّجل، وتَلِفَ.

فأخذ الرّجل بيد غلامه، وفتح الباب، وانصرف.

فورد علىّ أمر عظيم.

وقلت: أنا غريب، وينتبه صاحبُ البيت، فلا يعرفنى، ولا يشكّ فى إنّى صاحب الجناية، فأقتل.

فتركتُ رَحْلى، وأخذتُ رِدائى، ونَعلى، وطلبتُ الباب، فلم أزل أمشى، لا أدرى أين أقصد، والليل منتصف، وخِفْت العَسَس، فرأيتُ أتّون[1] حمّام لم يُوقدَ بَعْدُ.

فقلت: أختبئ فيه، إلى أن يُفتح الحمّام، فأدخله، فجلستُ فى كِسْر الأتّون.

فما لبثتُ حينًا، حتّى سمعتُ وَقْعَ حافر، وإذا برجل يقول: قد رأيتك يا ابن الفاعلة، ودخل الأتّون، وأنا كالميت من الفزع، لا أتحرّك، فلمّا لم يجد حسًّا، أدخل رأسه، ويدَه، ويومئ بسيف معه فى الأتّون، وأنا بعيد عن أن ينالنى السيّف، صابرٌ، مستسلم.

فلمّا لم يُحسّ أحدًا، خرج إلى بابه، وإذا معه جارية، فأدخلها الأتّون، فذبحَها، وتركَها ومضى.

---

(١) أتون: فرن.

فرأيتُ بريق خَلْخَالَيْن فى رجليها، فانتزعتهما منها، وخرجت، وما زلتُ أمشى فى الطريق متحيّرًا، إلى أن صرتُ إلى باب حمّام قد فُتِح، فدخلته، وخبّأتُ ما معى فى ثيابى، عند الحمامى.

وخرجتُ وقد أصبحتُ، فضممتُ الخَلْخَالَيْن إلى ما معى، وطلبتُ الطريق، فعرفتُ أنّى بالقرب من دار صديقٍ لى، فطلبتها، فدققتُ بابه، ففتح لى، وسُرَّ بمقدَمى، وأدخلنى.

فدفعتُ إليه منديلى الذى كان فيه دراهمى والخَلْخَالَيْن، ليخبّئهما، فلمّا نظر إليهما تغيّر وجهه.

فقلت: مالك؟

فقال: من أين لك هذان الخَلْخَالان؟

فأخبرته بخبرى كلّه فى ليلتى، فدخل مسرعًا إلى دار حَرَمه، وخرج إلىّ.

فقال: أتعرف الرّجل الذى رأيتَه قتل الجارية؟

قلت: أمّا بوجهه فلا، لأنّ اللّيلَ والظلمةَ كانت حائلةً بيننا، ولكنْ إن سمعتُ كلامَه عرفتُه.

فأعدّ طعامًا، وغدا فى أمره، وعاد بعد ساعة، ومعه رجلٌ شابّ من الجُند، فكلّمه، وغمزنى عليه.

فقلت: نعم، هذا هو الرّجل.

ثمّ أكلنا، وحضر الشراب، فحَمَل عليه بالنّبيذ، فسكِرَ، ونام موضعه، فأغلق بابَ الدار، وذبح الرّجل.

وقال لى: إنّ المقتولة أختى، وكان هذا قد أفسدها، ونمى الخبر إلىّ منذ أيّام فلم أصدّق، إلاّ أنّى طردت أختى، وأبعدتُها عنّى، فمضت إليه، ولستُ أدرى ما كان بينهما، حتّى قتلها، وإنّما عرفت الخَلْخَالَيْن ودخلتُ فسألتها عنها. فقيل لى: هى عند فلان.

فقلت: قد رَضِيتُ عنها، فوجّهوا، فردّوها، فَلَجْلَجُوا فى القول، فعلمتُ أنّ الرّجل قد قتلها كما ذكرتُ، فقتلته، فقم حتّى ندفنه.

فخرجنا ليلاً، أنا والرّجل، حتّى دفنّاه، وعدتُ إلى المُشْرَعة، هاربًا من البصرة، حتّى دخلتُ بغداد.

وحلفتُ ألاّ أحضُر دعوة أبدًا.

وأمّا الجنازة، فإنّى خرجتُ ببغداد، نصف النّهار، فى يوم حار، لحاجة فاستقبلتنى جِنازة يحملها نَفْسَان.

فقلت: غريبٌ، فقيرٌ، أحملها معهما فأثاب، فدخلت تحتها، بدلاً من أحد الحمّالين.

فحين استقرّت على كتفى، افتقدتُ الحمّال، فلم أجِدْه، فصحتُ: يا حمّال، يا حمّال.

فقال الآخر: امش، واسكت، قد انصرف الحمّال.

فقلت: السّاعةَ، واللّهِ، أرمى بها.

فقال الحمّال: واللّهِ، لئن فعلتَ لأصيحنّ.

فاستحييْتُ، وقلت: ثوابٌ، فحملناها إلى مسجد الجنائز، فلمّا حططنا الجنازة فى مسجد الجنائز، هرب الحمّال الآخر.

فقلت: ما لهؤلاء الملاعين، واللّهِ، لأتمَنَّ الثواب، فأخرجتُ من كمّى دراهم، وصحت: يا حفّار، أين قبر هذه الجِنازة؟

فقال: لا أدرى.

فقلت: احفر، فأخذ منّى درهمَيْن، وحفر قبرًا.

فلمّا صوّبت عليه الجِنازة، ليأخذ الميت فيدفنه، وثب الحفّار من القبر فلطمنى، وجعل عمّامتى فى رقبتى، وصاح: يا قوم.. قتيل، فاجتمع الناس، فسألوه.

فقال: هذا الرّجل، جاء بهـذا الميت، بلا رأس، لأدفنه، وحلّ الكفن، فوجدوا الأمر على ما قاله الحفّار.

فدَهِشْتُ، وتحيّرت، وجرى عليّ من مكروه العامّة، ما كادت نفسى تتلف معه.

ثمّ حُمِلْتُ إلى صاحب الشُّرطة، وأُخْبِـرَ الخبر، فلم يُرِدْ شاهدًا علىّ، فجُرِّدت للسياط، وأنا ساكتٌ باهت.

وكان له كـاتب عاقل، فـحين رآنى، ورأى حـيرْتى، قال له: أنظِـرْنى، حتّى أكشفَ حالَ هذا الرّجل، فإنّى أحسبه مظلومًا، فأمْهله.

فقام، وخَلاَ بى، وساءلنى، فأخبرته خبرى، ولم أزِد فيه ولم أنْقُص.

فنحّى الميت عن الجِنازة، وفتّشها، فوجد عليها مكتوبًا: أنّها للمسجد الفلانى، فى النّاحية الفلانية.

فأخذ معه رجاله ومضى، فدخل المسجد مـتنكّرًا، فوجد فيه خيّاطًا، فسأله عن جِنازة هناك، كأنّه يريد أن يحمل عليها ميتًا له.

فقال الخيّاط: للمسجد جنازة، إلاّ أنّها قد أخِذَت منه الغدَاةَ، لحَمْل ميت، ولم تُردّ.

قال: مَن أخذها؟

قال: أهلُ تلك الدار، وأومأ إليها.

فكَبَسها الكاتـب برجّالة الشُّرطة، فوجد رجالاً، فقـبض عليهم، وحملهم إلى الشُّرطة، وأخبر صاحب الشُّرطة بالخبر.

وقرّر القومَ، فأقرّوا أنّهم تغايروا على غلام أمـرد كان معهم، فقتلوه، وطرحوا رأسه فى بئر حفروها فى الدّار، وحملوه على تلك الصورة، وأنّ الحمّالَيْن كانا من جملة القوم، وعلى أصلٍ هربًا.

فضُربت أعناق القوم، وخُلِّىَ سبيلى.

فهذا سبب يَمينى فى ألا أحضُرَ جنازة.

●●●

١١- جَزَاءُ الإِحسَان!!

حدّثنى إبراهيمُ بنُ علىّ بنِ سعيد بن على زَوْبعة النَّصِيبِينىّ المتكلِّم، قال:

قال جماعة من أهل نصيبين، إنّه كان بها أخَوان، ورثا عن أبيهما مالاً عظيمًا، جليلاً، فاقتسماه، فأسرع أحدهما فى حصّته حتى لم يبق معه شىء[1]، واحتاج إلى ما فى أيدى الناس، وثمّر الآخر حصّته، فزادت.

وعرض له سفر فى تجارته، فجاءه أخوه الفقير، وقال: يا أخى إنّك تحتاج إلى أن تستأجر غلامًا فى سفرك، وأنا أحتاج إلى أن أخدُمَ الناس، فاجعلنى بدل غُلام تستأجره، فيكون ذلك أصْوَنَ لى ولك.

فلم يشكّ الأخ أنّ أخاه قد تأدّب، وأنّ هذا أوّلُ إقباله، وآثر أن يَصُونَ أخاه، ورقّ عليه، فأخذه معه.

وكان للأخ الغنىّ حمارٌ فارِهٌ يركبه، وقد استأجر بِغالاً لأحماله، فأركب أخاه أحدَها، وركب هو أحدها، وأركب المُكارى الحمار، وساروا.

فلمّا استمر بهم السفر، حصَلوا فى جبل فى الطريق، وفيه كهف فيه عين ماء، فقال الأخ الفقير للأخ الغنى: لو نزلنا ههنا، وأرحنا دوابَّنا، وسقيناها من هذا الماء، وأكلنا، ثم ركبنا، لكان أرْوَحَ لنا.

فقال: افعل.

فنزل التاجر على باب الكهف الذى فى الجبل، وأدخل متاعه إليه، وبسط السُّفْرة، وأخذ أخوه الفقير، والمُكارى، الدوابّ، ومضيا ليسقياها.

وانتظر التاجرُ أخاه، فاحتبس طويلاً، ثم جاء وحده، وشدّ الدوابّ.

فقال له أخوه: يا أخى ما قُعادك، وأنا أنتظرك تأكل معى؟

---

(١) أى أسرف فى إنفاق ما ورثه ولم يثمره.

فقال: حتى سقيْتُ الدوابّ.

فقال: وأين المُكارى؟

فقال: قد نام فى الجبل.

فقال: تعال، حتّى نأكل.

فتركه ومضى، ثم عاد، وبيده حجارة يرمى بها أخاه، ويقول له: استَكْتِف[1] يا ابنَ الفاعلة.

فقال له: ويُحك ما تريد؟

فقال: أريد قتلَك يا ابنَ الفاعلة، أخذت مالَ أبى، فجعلتَه تجارةً لك، وجعلتنى غُلامَك.

قال: ورفسه، وألقاه على ظهره، ثم أوثقه كِتافًا، وأثخنه ضربًا بالحجارة، وشجاجًا، وصاح الرجل، فلم يجبه أحد.

وبرك أخوه الفقير على صدره، وكان فى وسطه سكّين عظيمة، فى قِراب لها، فرام استخراجها من القِراب ليذبحه بها، فتعسّرت عليه، فقام عن صدر أخيه، وأعلا يدَه اليسرى، وفيها السكّينُ فى قرابها، وجذبها بيده اليمين، وقد صار القراب مع حَلْقِه، فخرجت السكين بحمية الجذبة، فذبحتْه، فوقع يخور فى دمه، ونزف إلى أن مات، وجفّت يده على السكّين بعد موته، وهى فيها.

وحصل على تلك الصورة، وأخوه الغنىُّ مشدود، لا يقدر على الحركة، والسُّفْرة منشورة، والطعام عليها، والدواب مشدودة.

فأقام على تلك الصورة بقيّة يومه، وليلته، وقطِعةً من غده.

فاجتازت قافلة على المحجَّة، وكان بينها وبين الكهف بُعْد، فأحسّت البغال بالدوابّ المجتازة، فصَهلت، ونَهَقَ الحمار، وجذبت الرَّسَنَ، وجذبت البغال أرسانها، فأفلتت، وغارت[2] تطلب الدوابّ.

---

(١) استكتف: أى كتفّ نفسك.

(٢) غارت (عامية بغدادية): أسرعت تجرى.

فلمّـا رأى أهل القافلة، دواباً غـائرة، ظنّوا أنّها لقـوم قد أسرهم الـلصوص، وكانوا فى مَنَعَة، فتسارعوا إلى البغال.

فلمّا قصدوها، رجعت تطلبُ موضعَها.

وتبعـها قـوم من أهل القافلة، حـتى انتهـوا إلى التاجـر، وشاهدوه مكتـوفًا، والسُّفرةَ منشورة، والأخَ مذبوحًا، وبيده السكين، فشاهدوا عجبًا.

واستنـطقوا الرجل، فـأومأ إليهم أنّ لا قُـدرة له على الكلام، فـحلّوا كتـافه، وسقوه ماءً، وأقاموا عليه أن أفاق، وقدر على الكلام، فأخبرهم الخبر.

فطلبوا الـمُكارى، فوجدوه غريقًا فى الماء، قد غرقه الأخ الفقير.

فحملوا أثقال التاجر على بغاله، وأركبوه على حماره، وسيرّوه معهم إلى المنزل الآخر.

●●●

١٢- قِرْد!!

حدّثنى علىّ بن نظيف المتكلّم، المعروف بشَهْدَانْجَة، وسعيد بن عبد الله السمَرْقَنْدى الفقيه الحنفى، عمّن حدّثهما:

إنّه بات فى سطح خَانٍ، فى بعض الأسفار، ومعهم قَرّاد، ومعه قِرد، وامرأته، فباتا فى خان.

قال: فلما نام الناس، رأيت القردَ قد قلع المسمارَ الذى فى السلسلة، ومشى نحو المرأة، فلم أعلم ما يريد.

فقمتُ، فرآنى القرد، فرجع إلى مكانه، فجلستُ، ففعل ذلك دَفَعات، وفعلْتُهُ.

فلما طال عليه الأمر، جاء إلى خُرْج القرّاد، ففتحه، وأخرج منه صُرَّة دَراهم، خمّنتُ أنّ فيها أكثرَ من مائة درهم، فرمى بها إلىّ.

فعجبتُ من أمره، وقلت: أمْسِكُ، لأنظرَ ما يفعل، فأمسكتُ.

فجاء إلى المرأة، فمكّنته من نفسها، فوَطِأها.

فاغتممتُ بتمكينى إيّاه من ذلك، وحفظتُ الصرّة.

فلما كان من غدٍ، صاح القَرّاد، يطلب ما ذهب منه.

وقال لصاحب الخان، قِرْدِى يعرف مَن أخذ الصُّرة، فاضبط بابَ الخان، وأقعُدُ أنا وأنت والقرد، ويخرج الناس، فمن عَلِق به القرد فهو خَصمى، ففعل ذلك.

وأقبل الناس يخرجون والقرد ساكت لا يتكلم، وخرجتُ فما عَرَضَ لى، فوقفتُ خارِج الخان أنظر ما يجرِى، فلمّا لم يبق إلاّ يهودى، فخرج، فعلِق به القرد.

فقال القرّاد: هذا خَصمى، وجذبه ليحملَه إلى صاحب الشُّرطة، فلم أستحلّ السكوت.

فقلت: يا قوم، ليس اليهـودىّ صاحبَكم، والصُّرَّة معى، ولى قصّة عـجيبة فى أخذها، وأخرجتها، وقصصتُ عليهم القصة.

فحُـملْنا إلى صاحب الـشُّرطة، وحضـرت الرفقـة، فعـرَّفوا صاحبَ الـشُّرطة مَحَلِّى، ومنزلتى، ويسارى، وأقبل القرّاد يحيدُ عن قرده.

فمـا برِحت حتى أمـر صاحب الشُّرطة بقـتل القرد، وطُلبت المرأةُ، فـهربَتْ، وسَلِمَ اليهودىّ.

●●●

١٣- من غرائبِ الصُّوفية

حدّثنا إبراهيمُ الخوّاص الصوفى، رحمه اللّه تعالى قال:

ركبتُ البحر مع جماعة من الصُّوفيَّة، فكُسر بنا المركب، فنجا منّا قومٌ على لوح من خشب المركب.

فوقفنا على ساحل لا ندرى فى أى مكان هو، فأقمنا فيه أيامًا لا نجد ما نقتاته، فأحسسنا بالموت، وأيقنّا بتَلَفِنا من الجوع لا محالة.

فقال بعضنا لبعض: تعالَوْا نجعلْ للّه تعالى على أنفسنا أن ندع له شيئًا، فلعلّه أن يرحمَنا فيخلّصَنا من هذه الشدّة.

فقال بعضنا: أصومُ الدهر كلّه.

وقال الآخر: أصلّى كلّ يوم كذا وكذا ركعة.

وقال بعضنا: أدَع لذّات الدنيا، إلى أن قال كلُّ واحد منهم شيئًا، وأنا ساكت.

فقالوا: قُلْ أنت الآخر شيئًا.

فلم يجر على لسانى إلاّ أنْ قلت: أنا لا آكل لحم فيل أبدًا.

فقالوا: ما هذا القول فى مثل هذا الحال؟

فقلت: واللّه، لم أتعمّد هذا، ولكنّى منذ بدأتم فعاهدتم اللّه تعالى عليه، وأنا أعرض على نفسى شيئًا كثيرة فلا تطاوعنى بتركها، ولا خطر ببالى شىء أدَعه للّه تعالى، ولا مرّ على قلبى غير الذى لَفَظَتْ به، وما أجْرِىَ هذا على لسانى إلا لأمرٍ.

فلما كان بعد الساعة، قال أحدنا: لِمَ لا نطوف هذه الأرضَ متفرّقين فنطلب قوتًا، فمَن وجد شيئًا أنذر به الباقين، والموعد هذه الشجرة.

قال: فتفرّقنا فى الطواف، فوقع بعضنا على ولد فيل صغير، فلوّح بعضنا لبعض فاجتمعنا، فأخذه أصحابنا، واحتالوا فيه حتى شووه وقعدوا يأكلون.

فقالوا: لى: تقدمّ وكُلْ معنا.

فقلت: أنتم تعلمون أنّى منذ ساعة تركته للَّهِ عَزَّ وجَلَّ، وما كنتُ لأرجع فيه، ولعلّ ذلك قد جرى على لسانى من ذِكْرِى له، هو سبب موتى من بينكم، لأنّى ما أكلتُ شيئًا منذ أيّام، ولا أطمعُ فى شىء آخر، ولا يرانى اللَّه عَزَّ وجَلَّ أنقض عهده، ولو متّ جوعا، فاعتزلتهم وأكل أصحابى.

وأقبل الليل، فأويتُ إلى أصل شجرة كنت أبيتُ عندها، وتفرّق أصحابى للنوم.

فلم يكن إلاّ لحظة، وإذا بفيل عظيم قد أقبل وهو يَنْعَر، والصحراء تتدكْدَك، بنعيره وشدّة سعيه، وهو يطلبنا.

فقال بعضنا لبعض: قد حضر الأجل، فتشهدّوا، فأخذنا فى الاستغفار والتسبيح، وطَرَحَ القومُ نفوسَهم على وجوههم.

فجعل الفيل يقصد واحدًا واحدًا منهم، فيتشمّمه من أوّل جسده إلى آخره، فإذا لم يبقَ منه موضعًا إلى شمّه، شال إحدى قوائمه فوضعها عليه ففسخه.

فإذا علم أنّه قد تَلِف، قصد إلى آخر ففعل به مثل فِعله بالأوّل.

إلى أن لم يبقَ غيرى، وأنا جالس منتصبٌ أشاهد ما جرى وأستغفرُ اللَّه عَزَّ وجَلَّ وأسبّح.

فقصدنى الفيل، فحين قَرُب منّى، رميتُ بنفسى على ظهرى ففعل بى من الشمّ كما فعل بأصحابى، ثم عاد فشمّنى دفعتين أو ثلاثًا، ولم يكن فعَل ذلك بأحد منهم غيرى، وروحى فى خلال ذلك تكاد تخرج فَزَعًا.

ثم لفّ خُرطومه علىّ وشالنى فى الهواء، فظننته يريد قتلى، فجهرتُ بالاستغفار.

ثم لفّنى بخرطومه فجعلنى فوق ظهره، فانتصبتُ جالسًا، واجتهدتُ فى حفظ نفسى بموضعى.

وانطلق الفيل، يُهرول تارةً، ويسعى تارة، وأنا تارة أحمَد اللَّه تعالى على تأخير الأجل وأطمعُ فى الحياة، وتارة أتوقّع أن يثور بى فيقتلَنى، فأعاودُ الاستغفار، وأنا أقاسى فى خلالِ ذلك من الألم والجزع لشدة سرعة سَعْيِ الفيل أمرًا عظيمًا.

فلم أزل على ذلك، إلىّ أن طلع الفجر وانتشر ضوؤه، فإذا به قد لفّ خرطومه علىّ.

فقلت: قد دنا الأجل وحضر الموت، وأكثرتُ من الاستغفار.

فإذا قد أنزلنى عن ظـهره برفق، وتركنى على الأرض، ورجع إلى الطريق التى جاء منها، وأنا لا أصدّق.

فلما غاب عنّى، حتى لا أسمع له حسًّا، خررتُ ساجدًا للَّه تعالى، فما رفعتُ رأسى حتى أحسستُ بالشمس.

فإذا أنا على محجّة عظيـمة، فمشيْتُ نحو فَرسخيْن، فانتـهيتُ إلى بلد كبير، فدخلته.

فعجب أهلُه منّى، وسألونى عن قصّتى، فأخـبرتهم بها، فزعموا أنّ الفيل قد سار بى فى تلك الليلة مسيرة أيّام، واستطرفوا سلامتى.

فأقمتُ عندهم حـتى صَلُحْتُ من تلك الشدّة التى قاسيـتها، وتندّى بدنى، ثم سرتُ عنهم مع التجـار، فركبتُ فى مركب، ورزقنى اللَّه السـلامة، إلى أن عدتُ إلى بلدى.

●●●

١٤- أمينٌ.. شَرِيفٌ

حدّثنى أبو بكر محمّد بن عبيد اللّه بن محمّد الرازى، المعروف بابن حَمْدون، عن الحسن بن محمّد الأنبارى الكاتب، قال: كان لى أيّام مُقامى بأرَّجَان جارٌ تاجر، يعرف بجعفر بن محمّد، وكنت آنَسُ به، فحدّثنى، قال:

كنت أحجّ دائمًا، وأنزل على رجل علَوِىٍّ، حُسَيْنِىٍّ فقير، مستور، فألْطِفُه، وأتفقّده.

فتأخرّتُ عن الحجّ سنة، ثمّ عاودتُ، فوجدته مُثْرِيًا، فسررتُ، وسألته عن سبب ذلك.

فقال: كان قد اجتمع معى دُرَيْهِمات على وجه الدّهر، ففكّرتُ، عامَ أوّل، فى أن أتزوج، فإنّى كنت عَزَبًا، كما قد علمتَ.

ثمّ علمتُ أنّ فرض الحجّ قد تعيّن علىّ، فرأيتُ أن أقدّم أداء الفرض، وأتوكلّ على اللّه عَزَّ وجَلَّ، فى أن يسهّل لى -بعد ذلك- ما أتزوّج به.

فلمّا حججتُ، طُفت طَواف الدخول، وأودعتُ رَحْلى، وما كان معى، فى بيت من خان، وأقفلتُ بابه، وخرجتُ إلى مِنَى.

فلمّا عدت، وجدتُ البيت مفتوحًا، فارغًا فتحيّرتُ، ونزلت بى شدّة ما مرّ بى قطّ مثلُها.

فقلت: هذا أعظم للثواب، فما وجه الغمّ، فاستسلمتُ لأمر اللّه عَزَّ وجَلَّ.

فجلستُ فى البيت، لا حيلة لى، ولا تسمح نفسى بالمسألة[1]، فاتّصل مُقامى ثلاثة أيّام، ما طعِمْتُ فيها شيئًا.

فلمّا كان فى اليوم الرابع، بدأ فىَّ الضعف سَحَرًا، وخِفت على نفسى، وذكرتُ قول جدّى رسول الله ﷺ وآله: «ماءُ زمزم لما شُرِبَ له»، فخرجتُ أريدها

(١) لم تطب نفسه بأن يتسوّل.

حتّى شربتُ منها، ورجعتُ أريد باب إبراهيم الخليل -على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام -لأستريحَ فيه.

فبينَا أنا أسير، إذ عَثَرتُ فى الطريق بشىء أوجع إصبعى، فأكْبَبْتُ عليه لأمسكه، فوقعت يدى علىٰ هميان أدلم[1] أحمر كبير، فأخذته.

فلمّا حصل فى يدى، ندمتُ، وعلمتُ أنّ اللقَطَة -ما لم تُعرَّف- حرام.

وقلت: إذا تركته الآن، كنتُ أنا المضيِّع له، وقد لزمنى أن أعرِّفه، ولعلّ صاحبه، إذا رجع إليه، أن يَهَبَ لى شيئًا أقتاته حلالاً.

فجئتُ إلى بيتى، وفتحتُ الهِميان، فإذا فيه دنانيرُ صُفر، تزيد على ألفىْ دينار.

فسددته، ورجعتُ إلى المسجد، فجلستُ عند الحِجْر، وناديت: مَنْ ضاع له شىء، فيأتينى بعلامته، ويأخذه.

فانقضى يومى، وأنا أنادى، وما جاءنى أحد، وأنا على حالى من الجوع.

وبتُّ فى بيتى، ليلتى كذلك، وعدتُ إلى الصَّفَا والمَروة، فعرّفته عندهما يومى، حتّى كاد ينقضى، فلم يأتنى أحد.

فضعُفْتُ ضعفًا شديدًا، وخشِيتُ على نفسى، فرجعتُ متحاملاً، ثقيلا، حتّى جلستُ على باب إبراهيم الخليل، على نبيّنا وعليه السلام، وقلت قبل انصرافى: إنّى قد ضَعُفْتُ عن الصياح وأنا ماضٍ أجلس على باب إبراهيم، فمَن رأيتموه يطلب شيئًا ضاع منه، فأرشدوه إلىّ..

فلمّا قَرُب المغرب، وأنا فى الموضع، إذا أنا بخُراسانى ينشد ضالّة[2]، فصحتُ به، وقلتُ له: صِفْ لى ما ضاع منك، فأعطانى صفة الهِميان بعينه، وذكر وزْنَ الدنانير وعددها.

فقلت: إن أرشدتك إلى مَن يردّه عليك، تعطينى منه مائة دينار؟

---

(١) الهميان: كيس لحفظ النقود مثبت بحزام يُربط على الوسط.

(٢) رجل من خراسان يبحث عن شىء فقده.

قال: لا.

قلت: فعشرة دنانير؟

قال: لا.

فلم أزل أنزل معه، حتّى بلغتُ إلى دينار واحد.

فقال: لا، إن رأى من هو عنده، أن يرده إيمانًا واحتسابًا، وإلا فهو أبصَر، وولّى لينصرف.

فوَرَدَ علىّ أعظمُ وارِد، وهَمَمْتُ بالسكوت، ثمّ خِفتُ اللّهَ سبحانه وتعالى، وأشفقتُ أن يفوتنى الخُراسانىّ.

فصحتُ به: ارجع، ارجع، وأخرجتُ الهِميان، فدفعتُه إليه، فأخذه، ومضى، وجلستُ، ليس لى قوّة على المشى إلى بيتى.

فما غاب عنّى إلاّ قليلاً، حتّى عاد، فقال لى: من أى البلاد أنت، ومن أىّ النّاس؟

قال: فاغتظتُ منه غيظًا شديدًا، وقلت: ما عليك، هل بقى لك عندى شىء؟

قال: لا، ولكنّى أسألك باللّهِ العظيم، من أى النّاس والبلاد أنتَ؟ فعرِّفنى، ولا تضجَر.

فقلت: رجلٌ من العرب، من أهل الكوفة.

فقال: من أيّهم أنت، واختصِرْ؟

فقلت: رجلٌ من ولد الحسيْن بن علىّ بن أبى طالب، رضى اللّه عنهم.

فقال: ما حالُك ومالُك.

قلت: لا أملك فى هذه الدنيا كلّها إلاّ ما تراه، وقصصتُ عليه حالَ محنتى وما كنت طمعت فيه أن يُعطينيه من الهِميان، وما قد انتهيتُ إليه من الضعف من الجوع.

فقال: أريد مَن يُعرّفنى صحّةَ نَسَبِكَ وحالك، حتّى أقوم بجميع أمرك كلّه.

فقلت: مـا أقدر على المشى للضعف، ولكن إئْتِ الطُّوَّاف، وصِحْ بالكوفـيّين، وقُلْ: رجل من بلدكم، علويّ، ببـاب إبراهيم، يريد أن يجـيئـه منكم مَن ينشط لحالٍ هو فيها، فمَن جاء معك فهاته.

فغـاب غير بعـيد، ثمّ جاء ومعـه من الكوفيـين جماعة اتّفـق أنّهم كلّهم كانوا يعرفون باطن حالى.

فقالوا: ما تريد أيّها الشّريف؟[1].

فقلت: هذا رجلٌ يريد أن يعـرف حالى، ونَسـبى، لـشىءٍ بينى وبينه، فـعرّفوه ما تعرفون من ذلك.

قال: فعرّفوه صحّة نسبى، ووصفوا له طريقتى، وعُدْمِى.

فضمّنى، وجاء فأخرج الهِميان بعينه، كما سلّمته إليه، فقال: خذ هذا بأسره، بارك اللّه لك فيه.

فقلت: يا هذا، ما كفاك ما عاملتنى به، حتّى تهزأ بى، وأنا فى حال الموت.

قال: معاذ اللّه، هو لك، واللّهِ.

فقلت: فَلِمَ بخِلْتَ علىّ بدينار منه، ثمّ وهبت لى الجميع؟

فقال: ليس الهِميان لى، وما كـان يجوز لى أن أعطيكَ منه شيئًا، قَلَّ أو كثر، وإنّمـا أعطانيه رجل من بلدى، وسـألنى أن أطلب فى العـراق، أو فى الحجـاز، رجلاً علويّاً، حُـسينيّاً، فقـيرًا، مستـورًا، فإذا علمتُ هذا من حاله، أغنيـته، بأن أسلّم إليه هذا المال كلّه، ليصير أصلاً لنعمة تنعقد له، فلم تجتمع لى هذه الصفات قبلك فى أحد، فلـمّا اجتمعت فـيك بما شاهدته من أمانتك، وفقـرك، وعفّتك، وصبرك، وصحّ عندى نسبك فأعطيتكه.

---

(١) الشريف: المنتسب إلى آل البيت.

فقلت له: يرحمك اللَّه، إن كنتَ تحبّ استكمال الأجر، فخذ منه دينارًا وابتع لى به دراهم، واشتر بها ما آكله، وصر به إلىّ الساعة ههنا.

فقال: لى إليك حاجة.

قلت: قُلْ.

قال: أنا رجلٌ موسر، والذى أعطيتُك ليس لى فيه شىء، كما عرفتك، وأنا أسألك أن تقوم معى إلى رحلى، فتكونَ فى ضيافتى إلى الكوفة، وتتوفر عليك دنانيرك.

فقلت: ما فىّ حركة، فاحتل فى حَمْلى، كيف شئتَ.

فغاب عنّى ساعة، وجاء بمركوب، وأركبنيه إلى رحله، وأطعمنى فى الحال ما كان عنده، وقطع لى من الغد ثيابًا، وكان يخدُمنى بنفسه، وعادلنى فى عمّاريته[1] إلى الكوفة، فلمّا بلغتها، أعطانى من عنده دنانير أخر، وقال لى: تزودّ بها بضاعة، وفارقته، وأنا أدعو له، وأشكره، ولم أمسّ الهِميان.

وأخذتُ أنفق من الدنانير التى أعطانيها الرّجل، باقتصاد، إلى أن اتّفقت لى ضيْعةٌ رخيصة، فابتعتها بالهِميان، فأغلّت، وأثمرت، وأنا من اللَّه عَزَّ وجَلَّ، فى نعمة جزيلة، وخير كثير، والحمد للَّه على ذلك.

●●●

(١) يعنى كان معه فى نفس الهودج فوق راحلته.